48C2

COLUMBIA UNIVERSITY
THE
LIBRARIES
IN THE CITY OF NEW YORK
GENERAL
LIBRARY

JAR, 4862. al-Judayli.

من هدي الإسلام

١

دراسات إسلامية

في حِكَم التشريع وأسرار التنزيل وجلائل
العقائد وذخائر التاريخ وروائع العظات

بقلم
محمد عبد الرحمن الجديلي

منشورات المكتب التجاري - بيروت

من هَدْي الاسلام

من هدي الإسلام

١

دراسات إسلامية

في حِكَم التشريع وأسرار التنزيل وجلائل
العقائد وذخائر التاريخ وروائع العظات

بقلم

محمد عبد الرحمن الجديلي

المدير العام السابق للشئون الدينية
برياسة مجلس الوزراء بالجمهورية العربية المتحدة

أمحمدُ أشرقُ بنورِ محمدٍ
فالشمس من هذا البيان شعاعُ

« الصاوي شعلان »

سبق أن قررت وزارة التربية والتعليم تدريس هذه الدراسات
لطلبة المعاهد الثانوية بمدارس الجمهورية العربية المتحدة .

BP
165.7
.J8
v.1

الطبعة الاولى

نيسان (ابريل) ١٩٦٢

١٩٦٣

0840
1977

كتب قيّمة

في التعريف بهذه المحاضرات والدراسات

بقلم أئمة الدين وكبار المفكرين

كتاب كريم

للمصلح الديني الكبير الأستاذ الأكبر المرحوم

الشيخ محمد مصطفى المراغي

حضرة الأستاذ الجديلي ،

سمعت بعض محاضراتك في « المذياع » وقرأت بعض ما بعثت بـــه إلي . فرأيت من الواجب أن أُشعرك بما تستحقه هذه المحاضرات من الإعجاب والثناء، وبما تستحقه أنت من الشكر والإطراء ، وقد أحسنتَ في تخيّر الموضوعات ، وأجدت في تهذيب الأسلوب ، وتجويد العبارات . فخدمت دينك وأمتك ، وأرضيت ربك ورسولك ، أسأل الله أن يتولى جزاءك ويديم لك التوفيق .

والسلام عليكم ورحمة الله .

شيخ الجامع الأزهر

محمد مصطفى المراغي

خطـــاب بارع

بقلم الوزير العـالم المرحوم

عبد العزيز محمد (باشا)

وزير الأوقاف الأسبق

إلى الأستاذ العبقري النابه عبد الرحمن الجديلي – زاده الله علماً ،

أحيّيك تحية المعجب بك ، العارف لفضلك وأدبك ، المستفيد من علمك .

وبعد ؛فإذا كان من حق الاحسان ، أن يقابَل بالاحسان ، ومن مقتضى الاتقـان أن لا يبقى في طي الكتمان ، وأن يشاد بهما للحضّ على الاسـتزادة منهما ، والمثابرة عليهما – فإنك لعمرُ الحق في عملك من أفضل من أحسنوا وأتقنـوا ، وأجادوا وتفننوا ، تبينتُ ذلك يقيناً ، عندما أتيحت لي أثناء ولايتي لوزارة الأوقاف فرصة استماعي لمحاضراتك القيمة البليغة حينما كنت تتلوهـا عليّ قبل إلقائها الى « المذياع » الذي هو من أعجب مخترعات هذا العصر ، لإبلاغها مسامع الدهماء في جميـع الأرجاء ، التي بلغتها دعوته ، وانتهت اليها رحلته .

كنت حينما أصغي اليها – وكلي آذان تصغي – لا يخلص الى سمعي ولا الى قلبي شيء مما عداها ، فكانت تملك عليّ جميع مشاعري ، وتستأثر بنوافذ فطنتي فتتسابق الى وجداني منهـا المعاني الرشيقة في زخرف الألفاظ العذبة ، والأساليب البارعـة ، فتهيـج شجوني ، وتفيض شؤوني ، وتثير ذكريات مجد غابر ، وعز داثر .

لقد ملكتَ أيها الأديب قياد الفصاحة وأنت ربيبهـا ، وامتطيت صهوة

البلاغة وأنت غذيتُها ، فأتيت في محاضراتك الشيّقة من بدائع القول وروائع البيان ، في شرح أسرار التنزيل ووصف آثار بعثة الرسول الأكرم (صلوات الله عليه) في العالم وأحوال سلفنا الصالح رضوان الله عليهم ، وكرائم أخلاقهم وجلائل مآثرهم ومفاخرهم ، وما حفظه لهم التاريخ من أعمالهم المجيدة ، وآثارهم الخالدة — أتيت في شرح ذلك كله ووصفه بما دل على غزارة علمك ، وثقوب فهمك ، ودقة فقهك ، ونور بصيرتك .

فلله أنت ولله صنيعك ، فقد أهديت أحسن العبر للمعتبرين ، وقدمت أكمل المُثل العليا للمحتذين ، وان فيها لموعظة وذكرى « لمن كان له قلب أو ألقى السمْع وهو شهيد » .

ولقد كان في عزمي كما علمتَ لو طالت مدتي في الوزارة ، أن أقرر طبع هذه المحاضرات النفيسة ونشرها للناس كتاباً يقرأ على مر الأيام لما احتوته من الفوائد الجمة ، وأن تترجم الى بعض اللغات الأجنبية لتعريف غير المسلمين حقيقة الإسلام ومحاسنه وآثاره الفضلى في تهذيب النفوس، وتطهير الأخلاق، فإنهم منها في أمر مريج — كنت معتزماً ذلك ، وأن أكافئك على ما بذلتَ من جهد في نسج بردها على هذا النمط الحسن ، وتنسيق موضوعاتها بهذا الشكل البديع ، حتى أتت معجزة في البلاغة والأدب .

ولئن فاتني ما كنتُ قد قصدت اليه بالتخلي عن الوزارة فأرجو ألا يفوت ذلك حضرة صاحب المعالي وزيرها الحاضر فإنه خير من يعرف للعاملين أقدارهم .

ولن يفوتني أن أسدي لك عظيم شكري على ما أبديت من فرط غيرتك على دينك ، وما أديت من واجب النصح لإيقاظ قومك ، والله سبحانه من وراء ذلك يجزل لك مثوبة العاملين المخلصين ، انه ولي الإحسان ، وهو الغفور الشكور . . .

والسلام عليكم ورحمة الله .

من محبك

عبد العزيز محمد

كتاب عزيز

لفضيلة الأستاذ العلامة المرحوم

الشيخ عبد المجيد اللبان

شيخ كلية أصول الدين – سابقاً –

بسم الله الرحمن الرحيم

الى حضرة الأستاذ المحترم عبد الرحمن الجديلي . حيّاه الله وحباه .

أما بعد ، فإني أوليك تحية من يحترم فضلك وأدبك . ويجل مواهبك ويقدر عملك ، وأن من خير ما صنعت تلك المواعظ الحسنة التي نشرها على العالم مذياع ارشادك ، ودعوتك الحكيمة في محاضرات قيمة ، سمعتها الآذان فأصغت إليها ووعتها النفوس فطهرت بها ، وتذكرتها الألباب فصفت وأخلصت . لقد قرأتها فكنت حين سرحت الطرف في نواحيها ، كمن جاب روضاً يانعاً بهج المنظر ، اذا سرّه زوج من أزهاره أغراه منها زوج آخر .

أعجبني ما شرحت من عقيدة اسلامية حنيفية ، وسيرة شريفة نبوية ، وزاد في اغتباطي ما ضممته الى ذلك من قيّم المبادىء في شتى المواضيع ، خلقية واجتماعية ، بأسلوب جزيل سهل يسّر للناس فهمها ، سواء منهم من رقي الى رتبة أهل العلم ومن نزل عنها .

فأصارحك أيها الأستاذ بأنك قد سلكت في هدايتك طريق المصلحين ،

وتأسيت بما ورد في قوله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء أُمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم » فكنت حكيما في صنعك ، بثثت روح التربية الصحيحة في النفوس ، وأشربتها حب الخير ، وعودتها عمل التقوى وإسداء المعروف ، عسى أن تسعد بها أمة تطلب منك المثابرة في هذا العمل المبرور حتى تؤدي رسالتك تامة فترضي ربك وتقرّ عين نبيك . وختاماً ندعو الله لك بخير ما يرجوه لولده البار ، الوالد الشفيق .

شيخ كلية أصول الدين

عبد المجيد اللبان

كلمة بنت الشاطىء

نشرت في جريدة « الأهرام » الغراء

أذاع هذه المحاضرات حضرة الأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلي من محطة الاذاعة اللاسلكية مندوباً عن وزارة الأوقاف ، فلقيت من الإعجاب وحسن التقدير ، ما دعا الى الاهتمام بطبعها ، نشراً للثقافة الدينية ، وتمكيناً من زيادة الانتفاع بهذه الدراسات القيمة ، في حكم التشريع ، وأسرار التنزيل وجلائل العقائد ، وكرائم السير وذخائر التاريخ وروائع العظات .

وليس الأستاذ الجديلي في حاجة الى من يقدمه الى القراء ، فقد قدمته من قبل أبحاثه الرائعة التي أذاعها على القراء في الصحف العربية ، وامتازت بجمال الأسلوب وحرارته وامتلائه ، ودلت على ثروة الأستاذ الثقافية وعلى روح البحث العلمي العميق. وقدمته أيضاً محاضراته التي أذاعها فكان لها صدى طيب من فرط الإعجاب وحسن التقدير .

كتب عنها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي « سمعت بعض محاضراتك في المذياع ، فرأيت من الواجب أن أشعرك بما تستحقه أنت من الشكر والإطراء وقد أحسنت في تخير الموضوعات وأجدت في تهذيب الأسلوب وتجويد العبارات فخدمت دينك وأمتك وأرضيت ربك ورسولك » .

وأسلوب المحاضرات أسلوب بليغ سهل ، ولكن في امتلاء ؛ وهو يميل الى الاختصار حيث قد حدد لكل محاضرة جزء من الوقت لا تعدوه ولا تقصر

عنه ، على أن هذا الإيجاز أبلغ في العظـــة ، وأبعد عن الإملال ، وأدعى الى الإصغاء والانتباه .

وللأستاذ الجديلي طريقة في الوعظ ، فهو لا يهجم بمواعظه ولا يلح على النفس بسرد نصائحه ، علماً منه بأن النفس الانسانية كثيراً ما تضيق بالوعظ وتتبرم بالنصيحة ، وهو لذلك يسلك اليها سبيلاً هيناً ، ويدخل نصائحه اليها خلسة حتى لا تمل ولا تتبرم .

ففي حديثه عن (الرجل المؤمن) مثلاً يخفي شخصية الواعظ في شخصية رجل مؤمن صادق الإيمان ، معتز به ، يحاوره فتى ضيق التفكير رقيق الإيمان ؛ ويجد المستمعون قلوبهم مبهورة تتتبع المحاورة في شوق ولهفة ، وتستقبل الموعظة وهي لا تكاد تدري .

ومحاضرات الاستاذ الجديلي عن أبطال الاسلام منهج للثقافـــة الاسلامية الضرورية ، فإن الكثيرين لا يعرفون ما لا بد من معرفته عن الدعوة الاسلامية وأطوارها وأبطالها .

ونحن نرجو أن يجد الاستاذ الجديلي من حسن تقـدير القراء بعض المكافأة على جهوده المشكورة الموفقة .

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحـــة وتعريف

نحْمَدُك اللّهم ، لكَ الخَلق والأمر ، ونستَخيرُك بيدِك الخير ، ونستلهمك الرشد والتوفيق ، ونستكفيك عوادي الأيام ؛ ونرغبُ اليك أن تصلي وتسلم على سيدنا ومولانا « محمد » صاحب الشريعة السّمحة ، والقول الفصل ، والخلق العظيم ؛ اللهم أدِّبنا بأدبه المحفوف بالعصمة ، وثقِّفنا بكلماتِه الجوامع في حديثه الشريف : — « مَن أحبَّ أن يكون أعزَّ الناسِ فليتقِ الله ، ومن أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكلْ على الله ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكنْ بما في يد الله أوثقَ منه بما في يده [1] » .

(وبعد) فهذه فصول في التشريع ، والأصول ، والفقه ، والتاريخ ، والسيَر ، والتراجم ، والعظات ، أذعتها تارة مندوباً عن وزارة الأوقاف وتارة تلبية للمستمعين ومساهمة في الخير العام . وقد جعل لها ذوو الشأن في الإذاعة جزءاً مقسوماً من الوقت لا تعدوه ولا تقصُر عنه ، فجاءتْ من الإيجاز في القالَب الذي صُنع لها ... لا كما ينبغي أن تكون من البسط والاستقصاء ... على أن النفوس في هذا الباب الى القصار أميل ، وبالموجَز أشغف ، ولعلها تكون على القلوب أندى . وجعلت نُصب عينيّ أن أستثير

---

١ — رواه محمد بن كعب عن ابن عباس رضي الله عنهما .

شوق المستمعين ، وأن أبْلُغ نوازع الخير فيهم – وقـــد أكون – بعون الله – قاربت المحَزَّ ، ثم أدع بعد هذا لمن شاء أن يَكشِف عن كنوز الشريعـة التي أشرتُ اليها ، وأن يستخرج ذخائر التراث الإسلامي الذي طفتُ حوله .

هذا – وأستقيل الله هفواتي ، ، « انه أهل التقوى وأهل المغفرة » .

محمد عبد الرحمن الجديلي

المدير العام للشئون الدينية
برياسة مجلس الوزراء سابقاً

أثر العقائد

في إصلاح المجتمع والأفراد

الطالب التقي في اوربا

كان لي صديق هو من أكرم الأصدقاء همامة نفس ، ونبالة خلق ، ومتانة دين ، ونصاعة عقيدة (وكان نجيّ نفسي لأني نجيُّ نفسه) . وكان أبواه من أولئك الذين أعرقتْ فيهم المعاني الدينية ، قد نمتهما بيئة كلها بر وصلاح وتقوى، فنشأ صاحبي على ما كان أبواه قد عوداه . حتى اذا ما أتم دراسته بمصر تهيأ له أن يرتحل الى أوربا ، فكان في الجامعة أعجوبة بين رفاقه . وكان محل اعجابهم أيضاً . كانت الصلاة على صاحبي كتاباً موقوتاً ، فهو يبادرها حيثما كان ، ولا يشغله عنها شأن من الشئون . وكان صومه حديثَ رفقائه ، فهو يرتقب رمضان ويُعِدُّ نفسه له ، ويخلق حوله جوّاً (رمضانياً)في صميم بلاد الفرنجة !!! . وكان اذا استيقظ من النوم فانتهى من صلاته عمد الى القرآن الكريم ، فشرع يرتل لنفسه بصوت عذب مؤثر لا يتجاوزه . ولكنه كان يجذب اليه الأسماع ويجمع عليه الرفاق حتى الذين لا يفقهون العربية !! وكان أكثر ما يبهرهم منه أن عينه كانت تفيض بالدمع خشوعاً ورهبة كلما تدبر معنى من معاني الآيات التي يقرؤها . وكان الى جانب ذلك كله في درسه وبحثه وجامعته وعلومه آيةً أو أعجوبة من الأعاجيب: فهو لا يُسأل الا وهو على علم بما يجيب. ولا يَسأل الا وقد فتح أبواباً طريفة للبحث بين يدي اساتذته ومعلميه .

إيمان وإلحاد

لمحت تلك الظواهرَ كلها فتاةٌ طالبة معه في الجامعة . وكانت (ملحدة) في نفسها ، ولكنها مسيحية في ظاهرها ، فعُنِيَت بتتبع حال صاحبي عناية كادت تشغلها عن دراستها . وكانت كثيراً ما تناجي نفسها : أوَ يجتمع هـذا العقل السليم وذلك العلم الجم ، وتلك المواهب النـادرة الى جانب عقيدة دينية قوية تصرِّف الفتى ذلك التصريف العجيب ؟ ثم كانت لا تجد من نفسها جواباً لذلك على ثقافتها ولباقتها وما تعلمه من ظاهر الحياة الدنيا !!!.

شاء الله لصاحبي ان يمرض ، وشاء الله ان تمرضه الفتاة الطالبة ، وشاء الله أيضاً ان تتوثق بينهما الصداقة ، وأن تنتهي الى رباط الزوجية . وكان الأمر عجيباً ، فالفتاة كانت تجهر بجحود العقائد وعداوة الأديان !!! وكان صاحبي ينفر ويغضب ساعة يسمع كلام الجاحدين . اذن . مـا الذي جمع هذين القلبين وألف بينهما ؟ إنها الأقدار والحكم سوّت الزوجين على تلك الصورة لتُبدع العظة ، وتُحكم الحجة ، ولكي تتم كلمة ربك « صِدْقا وعَدْلاً لا مبَدّلَ لِكلماتِهِ » .

الحياة مزيج من الخير والشر

عاد صاحبي الى مصر وهو زوج وله شأنه الديني . وجاءت معه الفتاة وهي زوجة ولها شأنها « اللاديني » . وفيما عدا ذلك ، فقد كان بيتهما مضرب الأمثال نظاماً وإحكاماً . وكان يرى عليه آثار النعمة وتشيع في جنباته المباهج ، غير أن الحكمة الالهية قد قضت بأن تكون الحياة مزيجاً من الخير والشر : وعند صفو الليالي يحدث الكدر : فقد تعاقبت الأشهر وكرّت السنون ولم يتهيأ للزوجين أن يُعْقِبا لا بنتاً ولا ولداً على شدة حرصهما وفرط تلهفهما – هنا : ظهر الغيم في أفق تلك الأسرة وأخذت سحب الأكدار تغشى الدار فكانوا لا يَدَعُون وسيلة من وسائل الطب ، ولا علاجاً من التجارب إلا التمسوه ، فلما أذن الله للعظة أن تتكلم وللحكمة أن تتجلى وللقضاء أن ينفذ حملت الزوجة على يأس من الحمل وولدت على استبعاد للولادة ، وجاءت به غلاماً كان قرة أعين أبويه . أعاد عليهما

بشاشة الدنيا ، وأراهما زهرة الحياة فلما ترعرع واكتمل له السن ، كان حديث الاخوان في لباقته وفصاحته .

ابتلاء الله لعباده

ولما ناهز الثامنة ، كانت الليلة الموقوتة في صحائف الغيب . أوى الغلام الى فراشه في ضجر وفتور ، ثم شكا الحمى ، ثم أسرع نبضه ، فجعلت أمُّه تعالجه بما تستطيعه وجعلت تقرّبه من صدرها ، مِرجَلٌ فوق مرجل ، وسعير يتقلب في سعير ؛ فالغلامُ تتأجج حرارته ، والأم تشوي كبدهـــا على تلك الحرارة . وحانت البرهة المرهوبة ، فهبط النبض ، وهبطت الحرارة الى حيث لا درجات ! واذا الغلام جثة هامدة !!!. واذا الأم من فرط الذهول لا تصدق ما تراه من صورة الموت ، وهو حق اليقين .

حنان الامهات

فكانت تلك الثكلى لا تزال تحدث غلامها ، وتجثو امام سريره وهي وان لم تكن ممن يركنون الى الأديان ، ولم تكن من ذوات العقائد . فان فطرة الله التي فطر الناس عليها قد ألهمتها ساعةَ مَسَّها الضر : — فاذا هي ضارعة شاخصة الى السماء تصيح « يا رب ارحمني » !!!.

***

ضراعة الملحدين

رأتها خادمتها « فاطمة » فعجبتْ لهذا المشهد الذاهل . وجعلت تُتَمْتِمُ وتحدّث نفسها : أين سيدتي من السماء ؟ وأين هي من العقيدة والدعاء ؟ وهي في حياتها ما عرفت سبباً يربطها بسماء ولا بدعاء . وكأن « فاطمة » الخادمة قد استعظمت رحمة الله ان تنزل بسيدتها ؛ واستبعدت أن يكون لها من حنان الله نصيب ، وما درت « فاطمة » المسكينة ، أن رحمة الله قد وسعت كل شيء . وأن

الله تعالى يقول : « قلْ يا عبادِيَ الذِينَ أسرَفوا على انفسِهم لا تقنَطوا من رَحمةِ اللهِ » ...

فما هي الا لحظات مرَّت على الأم ، وهي مشدوهة قد سُكِّر بصرها بالسماء حتى بعث الله عليها أمنَه نُعاساً ، فراحت مستغرقة في نومها . ولعل هذا الشعاع الرباني من الرحمة الذي أنام الأم ، كان براً بالوالد المؤمن قبل ان يكون براً بالأم الجاحدة . فلقد وصل الأب الى بيته متأخراً على غير عادته ، ولما همَّ بتعهد زوجه وولده ، شعر بالسكون يملأ جوانب الحجرة فرأى ألا يزعج النائمين ، وانعطف الى مخدعه حتى الصباح .

طلع النهار وتفتحت عين الأم على الحقيقة الهائلة . على الموت ماثلاً في جثمان الغلام الجميل . فراحت تصرخ ثم تصرخ ، وتقطّع في ثيابها وتلطم وجهها ، ولا تجد لها من مسعف !! حتى الدموع كانت تطلبها فلا تجدها :

والدمع مروَحةُ الحزين وراحة المُتَململِ

وتسألني أيها القارىء الكريم ، وأين ذهبت الدموع ؟ فأقول : انها تبخرت بنار الإلحاد الحامية !!..

صبر المؤمنين

تداعى الجيران ، وهبَّ الوالد من نومه على صوت الفاجعة وهو يقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » . « انا لله وانا اليه راجعون » ثم قطرت قطرات من عينه ، كانت برداً وسلاماً على حُشاشته ، ثم أخذ يستمنح الثبات من ايمانه ، ويستلهم الرضا من عقيدته ، فاذا هو يردد في سريرته : « له ما أعطى وله ما أخذ » ، لم يقطعه عن تلك الكلمة الا أنه تذكر لساعته قوله تعالى « فأردْنا أنْ يُبدلها ربها خيراً منه » .

أقبل الأب على زوجته يُنَهنِهُ من حدة الجزع ، ويدفع روعة المصاب ، ولكن هيهات هيهات !! فقد كانت المسكينة لا تسمع لغير صوت إلحادها .. ولا تركن الا الى نوازع قلبها .. وقلبُها مقفر ممْحِلٌ من يوم ظهرت جاحدة

ملحدةً منكرةً .

اليأس صنو الالحاد

ضاقت على المسكينة الارض بما رحبت . وأعياها – كما يُعييها دائماً – الركون الى قضاء الله . وشرعت تسأل في صراخ عنيف : أين ولدي ؟ من أخذه ؟ والجواب حاضر ، والعظة تتكلم ، ولكنّ للملحدين قلوباً لا يفقهون بها وأعيناً لا يبصرون بها ، وآذاناً لا يسمعون بها . يئست الأم . وحق لها أن تيأس فاليأس صنو الإلحاد . وجُبنت الأم أمام المصاب ، وحق لها أن تجبن . فالجبن أخو الجحود . « ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » .

فما كادوا يحملون الغلام الى مقره حتى كانت الأم الجاحدة تعدو ، ثم تعدو وكأنما يسوقها ويلهبها صوت الإلحاد !!! فصعدت سلاليمَ البيت ، حتى بلغت الطبقة الثامنة ، وجاوزتها الى السطح . وفي غاشية من غاشيات الجحود واليأس قذفت بنفسها . تريد الانتحار فخرت أثيمة الإلحاد .

أما صاحبي ، بعد أن نزلت به المصيبتان ، فقد كان شفاء نفسه كلما جاشت أن يردد قوله تعالى : « فصبرٌ جميلٌ ، واللهُ المستعان » فأعاضه الله زوجةً تقية بارة ، وولداناً اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا ...

وهكذا كتبت لنا العظة ؛ لقد صحب الجبن الإلحاد . حين ترديها الى حيث تروْن ؛ ولقد صحبت العقيدة الصبر والاحتمال ، حتى سعد المجتمع ، وسعدت الأفراد .

العقيدة تبعث الشجاعة

وهكذا تنتظم العقيدة : الإيمان بالله وحده ، إيماناً خالصاً من شائبة الشرك .

ومن آثار تلك العقيدة أنك ترى المؤمنين (أحراراً) لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً ؛ وتراهم (شجعاناً) فلا يرهبون في الحق انساناً . ثم تنتظم العقيدة الايمان (بالبعث) و (الحساب) (والجزاء) وهذه العقيدة انما هي في الحق

تمجيدٌ للإنسانية ، وتشريف للعقل . فلقد أذكر أن « فلاناً » كان يكذّب بيوم الدين ، وكان كثيراً ما يقول لصاحبه وهو يحاوره : العقلَ . العقـــلَ . أين البعث من العقل!! فكنا نقول له يا هذا :

إنك أنت الذي يمتهن العقل ، ويحقّر الكرامة الانسانية ، فانك بجحودك يومَ الدين انما تجعل الحياة (عبثاً) لا معنى لها ، وليست في نظرك غير إخلاد للشهوات . ولوناً من ألوان معيشة الحشرات . أكلٌ . وشرب . وسِفادٌ . ثم بغيٌ من القوي على الضعيف ، ثم فناءٌ وكأنْ لم يكن بنو الانسان شيئاً مذكوراً .

« أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ »

لا . لا . ان نتيجة الجحود بيوم الجزاء لأهول من هذا . فهي تجعل الحيوان والحشرة أسعدَ حالاً من الانسان ، فليس للحيوان فكر ولا تأمل ، ولا عقل ، وليس له أسف على لذة فاتت ، ولا فرح بلذة آتية ، ولا خوف ، ولا حزن ، ولا أمل مما اختُص به الانسان ، وكان له مبعث التكريم والتأهيل للاستخلاف في الارض !!

أفرأيت لو ان الانسان والحيوان والحشرة كلها سواسية !! تنتهي جميعاً الى الفناء ؟ أو ليس الانسان يصير أشقى من الحيوان بعقـله ، وأتعس من الحشرة بتأمله وفكره .؟!

العقيدة تسعد الفرد والمجتمع

وتنتظم العقيدة أيضاً الإيمانَ بالقدر خيره وشره حلوه ومرّه . ما دام كل نقص في تلك الحياة سيكمل في الحياة الأخرى ؛ وتلك عقيدة تهَبُ المؤمنين (سمواً) في المقاصد ، (وفناءً) في سبيل المجد ، وتعلمهم الصبر والاحتمال ، وتدفع بهم في صدور الأحداث . واليكم أثرَ تلك العقائد في سعادة المجتمعات :

كان المجتمع البشريُّ من قبل أن تشرق عليه أنوار تلك العقائد ظلاماً في ظلام ، وشراً ليس وراءه شر ... كان (الروم) و (الفُرس) يُسيطران

على العالم سيطرة كلها جور وإذلال وطغيان ، وكان الفسق والفجور قد عبثا بكل كرامة ، وهتكا كلّ ستر ، وجرحا كل عزة ، وكان المجتمع العربي قد أخذ بنصيبه من هذا الفساد على ما يتفق مع عيشته عيشة البداوة والضّراوة والفتك والعداوات والثّترات .

هنا ظهرت سنة الله في الارض اذا ما استشرى الفساد فيها ، فقام رسول الله الأكرم «محمد بن عبدالله» صلى الله عليه وسلم ، يدعو الى تلك العقائد والمبادىء ، فوثبت بها الامة العربية وثبة رجفت لها أقطار الأرض ، فلم يبق سهل ولا وعر ، ولا تاج ولا سرير الا تبدل خلقاً آخر .

وثوب الامة العربية بعقيدتها

وما كانت قوتهم التي أرغمت الأنوف ، وأخضعت الهامات – ما كانت في وميض السيوف ، ولا في عديد الجنود ، ولا في محكم التدبير لا . لا . لم تكن في شيء من ذلك ، فما من أمة ناهضتهم الا وكانت أشد منهم قوة ، وأوفر عدداً . انما الأمر الذي كان لهم وحدهم وقد فقده اعداؤهم ، قد كان مركزه في قلوبهم ، في إيمانهم ، في عقائدهم . عقائد تُهيب بهم الى احدى الحسنيين . اما حياة ماجدة عزيزة ، واما موت ، فلقاء لربهم ، واستبشار بما اعده لهم في جناته .

لقد خلقت تلك العقيدة من العرب ابطالاً وشجعاناً حتى لترى المرأة العربية لا تلبث بعد ان تَشِيع العقيدة في قلبها ان تسبق الرجال في ميادين الفخار ، وهذه « أمُّ أيمن » عندما رأت بعض الناس ينقضُّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم أُحُد ، أخذت تعيرهم ، وتتهكم بهم وتقول : « هاكم المغزل وهلمّ سيوفكم » .

رجالات انجبتهم العقائد

وانظروا ما خلقت العقيدة الصالحة من «عمر بن الخطاب رضي الله عنه» لقد كان ناشئاً على القسوة والعنف . حتى لقد وأد بنتاً من بناته في الجاهلية . فلما

أسلم ، وخالطت العقيدة شغاف قلبه صار من أرأف الناس وأرحمهم بعباده ، فهو يُنضج الطعام للأطفال الجياع ، وينفخ النار لامرأة فقيرة .

ألا انها العقائد والإيمان تذكي النفوس ، وتشفي العالم من امراضه الاجتماعية وتدفع اصحابها الى معاقل المجد . الى حيث العزة التي عبَّر عنها القرآن الكريم بقوله : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

ان صاحب العقيدة ليرسل عقيدته في أقطار الدنيا وهو يَهْتِفُ :

ولست أبالي حين أقتَلُ مسلماً على أي جَنْب كان في الله مصرعي

وان صاحب العقيدة ليأتي بجلائل الاعمال ، ويقتحم ميادين البطولة ، وهو يُرتِّل : قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا الا مَا كتَبَ الله لنا .

أين الرجل المؤمن ؟

وكيف تعرفه ؟

في مجلس شيخ جليل

اتّصل حديث بين رجل صادق الإيمان ، وبين فتى مهذَّب ، ولكنه ضيِّق التفكير ، وكان الحديث في مجمع حاشد ، رأينا عنده كيف تتفجر ينابيع الحكمة من حكماء المؤمنين ، وكيف تأخذ الحجَجُ القوية كلَّ ضعيف اليقين ، رقيق الإيمان من أولئكَ الذينَ « يَظُنُّون باللهِ ظَنَّ السَّوْء ، عَلَيهِم دائِرَةُ السَّوْءِ » « وَما ظَلَمهُمُ اللهُ وَلكِنْ أنفُسَهُمْ يظلِمُون » .

* * *

سمعتُ الحديث ، ووعيته ثم جعلت أتساءل : — أين نحن وأوصافَ المؤمنين من الرجال ؟ بل وأين انقطع الخلف وراء السلف . نعم جعلتِ اتساءل أين ؟ أين ... وإليكم أسوق ما دار من الحديث :

اعتدنا أن نسمُر كل أسبوع عشيةً في دار « شيخ » من الاشياخ المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

كان هذا الشيخ في مجلسه مهيب الطلعة حسن السَّمْتِ ، نافذ النظرة . وانه من حلاوة شمائله ليجتذب الى حديثه أخلاطاً وزمَراً يختلفون طرائق ولكنهم في حضرته يعقدون الاجماع على ان « الشيخ » بقية السلف الصالح ، وان عنده

لكل سائل سؤلا ، ولكل حيرة هدى – وفيه لكل نفس رَوْحٌ ونعيم – سمرنا على عادتنا ، وانعقد المجلس ، وتزاحم الوارد (والمنهل العذب كثير الزحام) فشرع الزائرون يأخذون بأطراف الحديث بينهم والشيخ يُصغي ولا يتدخل في الحديث ، حتى أخذ الفتى المتهذّب يقصُّ على السامعين حكاية رجل ينتسب الى الدين في اسلوب ناقد لاذع ، ختمه بقوله : –

آه ؟ لقد هان امر المؤمنين على كثرة عديدهم وانفساح أوطانهم ، ولم يبق فيهم غير رجولة مسلوبة ، واخلاق منهوبة ، فلا صدق في القول !!! ولا سلامة في الصدر !! ولا عفة عن الشهوات ، ولا حميَّة عند الحق !! حتى لقد اختاروا الحياة في الباطل ، على الموت في نصرة الحق . فمن اين اتاهم ذلك ؟ أمن إيمانهم ! وما انتهى الفتى الى هذا المقطع ، حتى اهتاج « الشيخ » في مقعده ، وغضب غضبة ظهرت آثارها في وجهه وصاح في الفتى :

كذب الظانّ ، وأخطأ الواهم ، وصدق الله العظيم :

عزة المؤمن

(ولله العزةُ ولرسوله وللمؤمنينَ ولَكِنَّ المُنافقِين لا يَعلمُون) فما هان مؤمن وهو مؤمن ، ولا ذل صاحب ايمان بايمانه . ثم جعل الشيخ يتدفق كما يتدفّق النَّبْع الصّافي لا تأخذه حُبْسة ، ولا يقصرُ به بيان : فلما سكت عنه الغضب قطع الحديث لِيَسْتجِمَّ . فقال الفتى اوَ هل يسمح شيخنا فيعرفنا :

– لماذا وهى بناء المؤمنين ، ولماذا تفرقت أهواؤهم ، وانفصمت عراهم ، وانصرفت عزائمهم عما يحفظ وجودهم ؟

فقطع الشيخ حديث الفتى وقال :

– رأيتك اول الأمر وآخره تذكر المؤمن والمؤمنين والإيمان ، وانت لا تحِقُّ ما لِتِلكَ الالفاظ من معان عُلويَّة ، ومعان تسيطر على النفوس ، وتصعد بها الى عروش العزة ، معان تُهوِّن صعاب الدنيا ، وتقرِّب الاقصى وتصغر

العظائم، وترخص كل عزيز، حتى يصل المؤمن بإيمانه إلى أقصى حدود المجد والسؤدد!!

حقيقة المؤمن

قال الشيخ : — ومالك يا فتى تلوكُ كلمات المؤمنين والإيمان ، وتصغّر من امرهما عظيما خطيراً ، وانت !!! أفلم تتدبر كيف تبَجَّحَ الأعراب غداة أسلموا باديَ الرأي . فانقادوا لمظاهر الإسلام ، وصلّوا وصاموا ، ولكنهم لم يُمتحنوا في إيمانهم ولم يُختبروا بشدائد الفتنة ، وتكاليف الأمانة العظمى ، ولم تُمحّص نفوسهم في ميادين الجهاد . تبجحوا وتلك حالهم فقالوا « آمنا » فرد عليهم العليم الحكيم بقوله :

« قالتِ الأعْرابُ آمَنَّا ، قُلْ لمْ تؤمِنوا ولكِنْ قولوا أسْلمْنا ولمَّا يدْخُلِ الإيمانُ في قلوبكم »

ذلك بأن للمؤمنين اوصافاً ونعوتاً . فعلامة المؤمن ان يُرخِصَ نفسه ابتغاء مرضاة الله . فلا يعملُ الا صالحا . ولا يقول الا حقاً ، ولن ترى ذلة ولا مسكنة ضُربت على مؤمن ، ولا تلاقت مع ايمانه . وليس يكفي ان تشاهد رجلاً يصلي ويصوم . ثم هو لا يشعر بوجود غير وجوده ، ولا يُحس بأفق غير أفقه ، ولا يدرك واجباً عليه لأمته . ومع هذا كله تظنه انت او يظن نفسه هو مؤمناً ؟!! انما المؤمن من يعرف أن وجوده اوسع ، وعَمله اشمل وانفع . فهو بإيمانه مسوق الى نفع الناس ، ودفع الأذى عنهم ، وهو يبادر الى المساهمة في صيانة ملته واعزاز أمته بالمال والأعمال ، والدعوة الى الخير ومقاومة الشر ، ولو تطلب الأمر ان يبذل روحه في هذا السبيل ...

قال الشيخ : — ولعلك يا فتى قد عرفت شيئاً من جواب ما سألت !! على أني باسط لك الأمر بسطا . فاعلم يا بني ان أخص صفات الإيمان السيادة ، فالمؤمن سيِّد في نفسه لا يخضع للقهر خضوع العبيد . وذلك يجعله وفياً لعقيدته وفاء لا يتقلقل ولا يتخلخل ، وان شئت أن تتمثل وفاء

المؤمن لعقيدته فتمثل رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم وقد ساوموه ليخون عقيدته ، وبذلوا له مباهج الدنيا ليترك دعوته ، فأباها عليهم ، نعم أبى وفاؤه الا فناءً في الحق ، ولم يزدد الا صلابة في منازلتهم وان اضطرب نظام الكون ، وان مادتْ الأجرام في أفلاكها ، وان انتثرت الكواكب ، وان صارت الشمس في يمينه والقمر في يساره ... ما ترك هذا الأمر أو يظهره الله ...

بسالة محمد عليه الصلاة والسلام

قال الشيخ : — ان رأيت أيها الفتى الرجل يصمد للأحداث ويسخر بالأرزاء ويصبر على الإيذاء صبر العزيز لا خضوع الذليل، ويتحمل الآلام احتمالَ الشجاع لا رضوخ الجبان ، ان رأيت هذا الرجل فاعلم ، أنك ترى المؤمن حقاً وتشاهدُ الإيمان صدقاً . ثم تدبر يا فتى قوله تعالى :

«الٓمٓ ، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ» .

واذا أحببتَ أن تبصر مشهداً من مشاهد الأذى والابتلاء ، يلقاها الدعاة المؤمنون ، لتتعرف أيَّ شيء هو الإيمان ؟ ومن هو الرجل المؤمن ؟ فأحضر قلبك صورة من الصور التي ابْتُلِيَ بها رأس المؤمنين ، وأكرم الخلق على الله سيدنا « محمد » عليه الصلاة والسلام .

جبن أبي جهل

حكى « ابنُ مسعود » من رواية البخاري قال : كنا مع رسول الله في المسجد فقال « أبو جهل » ألا رجلٌ يقوم الى فَرْثِ جزور فيلقيه على « محمد » وهو ساجد ؟؟ فقام « عقبة بن أبي مُعَيْط » وجاء بذلك الفرث . فألقاه على « النبي » صلى الله عليه وسلم وهو ساجد ، فلم يقدر أحد من الذين كانوا بالمسجد

على القائه عنه لضعفهم عن مقاومة عـدوهم ، ولم يزل عليه السلام ساجداً حتى جاءت فاطمة « كريمته » فأخذت القـذَرَ ، وقذفت به عن ظهر « أبيها » .

فهل رأيت يا بنيّ جبانة في الأذى كجبانة هؤلاء ؟؟ الرسول الأكرم منصرف الى صلاته مستغرق في حضرة ربه ، ونظام الصلاة يحجزه عن النـــاس ولكنّ أعداءه يرضون بأن يكونوا من الحقارة بحيث يؤذونه على تلك الصورة المزرية . ولقد تتوق يا بني الى تعرف سطوة الإيمان وخور البطلان ، فاستمع : يوم كان « أبو جهل » يخطِر بين قريش في كبريائه ، ويخرج عليهم في جبروته وهو مـع هذا ذو نفس ذليلة ، وفؤاد هواء . استمع : تعلم أن المؤمن لا يتردد في مطاردة الباطل مهما عظم شأنه ، وجلجل صوته . استمع لتلك القصة : —

ابتاع « أبو جهل » أجمالاً من رجل يقـــال له « الأراشيّ » ثم مطله بأثمانها فجاء الرجل مجمع قريش يريد منهم العون على « أبي جهل » ليأخـذ ماله عنده ، فأحبوا أن يسخروا من الرجل ، وأن يسخروا من « محمد » رسول الله — سخر الله منهم — فقالوا: دونك « محمدَ بنَ عبدالله » فهـــو وحده ينصفك من « أبي جهل » وينصرك . وما ارادوا بهذا غير الإغراء والإيذاء .

جلس القوم يشهدون المعركة بين الفضيلة والرذيلة، ويتعجلون السرور بظَفر الرذيلة ، ثم ذهب الرجل الى سيدنا « رسول الله » عليـه الصلاة والسلام وشكا اليه « أبا جهل » فبادر ، واصطحب الرجـــل الى دار « أبي جهل » غير مبال بِلِـدَدِ الخصومة وشدة العداء . دق « عليه السلام » الباب فصاح « أبو جهل » في رعونة وإرهاب : من الطارق ؟ فأجاب الطارق :« محمد » . فما انبعثت تلك الأحرف حتى كانت شُواظاً من سعير ، يسفع ناصية « أبي جهل»، أو صواعق أخرست لسانه ، واحتبست انفاسه ، فخرج متخـاذلاً مُمْتَقـعاً لونـُه فقال « عليه الصلاة والسلام » : أعط هـذا حقه . وقد كانت تلك الكلمات من امر الله الذي يقول للشيء كن فيكون !!! فما عاد «ابو جهل» المُمْطِل المخلاف !! بل خاطب الرجل في لغة ليِّنة وقال : ابق هنا في مكانك حتى تأخذ دينك ! عجبتْ قريش لما كان .!! وقالت « لأبي جهل » : ويلك يا ابا الحكم ،ما رأينا

مثل ما صنعت . قال : «ويلكم !!! والله ما هو الا ان ضرَب «محمد» على بابي ، حتى سمعتُ صوتاً ملئتُ منه رعباً . وكـــأنَّ فوق رأسي غولاً لا أريم معه » .

رهبة الايمان

قال الشيخ : — أعلمتَ يا فتى أن الإيمان رهيبٌ رهبةً تتقطع لهـــا نياط القلوب !!! وأنَّ المبطل جبان خوَّار . وإن تبجح بالقوة ، وتظاهر بالجبروت ؟ واليك يا بني صورة أخرى لأذية من الأذى كادت تمتد الى الحياة الشريفة . حياة سيدنا «رسول الله» عليه الصلاة والسلام ، فتلقّاها هازئاً بخصمه . محتقراً لصنيعه . ايماناً بوعد الله الذي يقول : والله يَعْصِمُك من الناس :

روى البخاري في صحيحه قال : بينما النبي صلى الله عليـــه وسلم في حِجْر الكعبة اذ أقبل «عقبة بن أبي معَيْط» فوضع ثوبه في عنق «رسول الله» فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل (ابو بكر) حتى اخذ بمَنْكبه ، ودفعه عن «النبي» صلى الله عليه وسلم وقال : — أتَقْتلون رجلاً أنْ يقولَ ربِّي الله . وقد جاءكم بالبيِّنات من ربِّكم ؟! فهل رأيت يا فتى صنيع هذا الأحمق مع الرسول الأكرم كيف كانت لغة الحوار والجدل ؟ انها لغة وقحة آثمة ، لغة تتحدث بالأيدي والأرجـــل . لا بالدليل والبرهان .

سكت الشيخ برهة فقال الفتى المتهذب : قد رأيت وعلمت صوَر الإيمان وصفات المؤمنين ولكن يا سيدي ، ذلك إيمان النبوَّة ، واني لأعرف كيف تتصل اسباب النبوات بالسموات ، فاذا أرْعَدت السماء او أبرقت غضباً للنبوة فليس على وجه الأرض الا مكبوب على وجهه ، او صعق في مكانه ، ولقـد يطيب لي أن اعرف صفات المؤمنين الذين لم يتساموْا الى مراتب النبوات .

مقاييس المؤمنين

قال الشيخ : ان الذي سمعتَ ورأيتَ صفةٌ لكـل مؤمن ، وآثارٌ لكل إيمان . فليس مؤمناً الا من ابتلي في عقيدته فكان أنِفاً ، وأوذي فكان مستعصياً

على أني مبادرك بصور لإيمان الموالي والأتباع ، فستعرف أن الإيمان متى حل في القلوب ، وان كانت قلوب عبيد ، فقد حلت معه فيها السيادة ، وقد يجعل الإيمان منهم قادة أعزة صناديد .

صفات المؤمنين من الموالي والأتباع

كان «عمّار بن ياسر» و «صهَيب» و «بلال» وأمثالهم يعَذّبون ليرجعوا عن دينهم ، فمنهم من كان يُكوى بالنار حتى لتحسب ان تلك الأجسام قد تعاظمت على النواميس الطبيعية ، فيمرُّ بهم سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهم أباة صابرون لا يشكون ولا يضرعون . فيقول لهم : صبراً .. صبراً ، فإن موعدكم الجنة ؛ وقد بلغ من فداحة التنكيل ان مات «ياسرٌ ابو عمّار» اثناء العذاب وسُلّمَت أمةٌ «لأبي جهل» كي يعذبها ، فلم يألها عذاباً وإيذاء حتى في كرامتها . شتما وامتهاناً . الى ان ماتت مؤمنة تحت اثقال العذاب .

وكان «امية بن خلف» يعذّب بلالا عذاباً ينضج الجلد ، ويشوي اللحم . ثم يضع على ظهره صخرة ثقيلة ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت ، او تكفرَ بمحمد !! وتعبد اللات والعُزّى . فلا يزيد «بلال» على أن يقول : الله احد ، الله احد ...

***

قال الشيخ : — تلك يا بنيّ صور المؤمنين ، وهذه بعض تكاليف الإيمان . وانك في صدر الكلام كنت تتحدث عن ايمان ، وعن مؤمنين . فدونك هذه المقاييس والموازين . فزِن كلّ مدعي الإيمان منهم ، امتحنْ بالأحداث إيمانهم ، وتلَمَّح كيف تهون عليهم في سبيل الله والحق اموالهم وانفسهم ؟ وكيف يتلقى الشدائد والأرزاء يَقينُهم ؟ فاذا ثقُلت الموازين ، فلن ترى يومذاك غير المؤمن عزيزاً ، ولن تشهد غير المؤمنين أعزة . ولئن اعطيتني « يا فتى » إيماناً من طراز ما سمعتَ ، ومؤمناً على مثال ما علمت ، بطل عجبك ، وذهبتْ حيرتك ، ورأيتَ أمتك خير أمة أخرجت للناس ، وتيقنت

صدق وعد الله : وكانَ حقاً علَيْنا نَصْرُ المؤمنين .

قال الشيخ : — وإني مرشدك يا فتى الى ان فساد المجتمع لا يجيئه الا من اضطراب الموازين ، التي توزن بها الرجال ، وخلعِ النعوت والألقاب على غير مستحقها . فأما لو استقامت الموازين ، واستوت المقاييس . ثم خفّت كِفّات المنافقين !! فقد صلح المجتمع ، وسعد الأفراد ، وليس غيرَ الحاكم الصالح من يقيم بين الناس الموازين بالقسط ...

* * *

لقد وقف مرةً بعض امراء المؤمنين يخطب الناس ، ويعظهم وينهاهم عن الفساد في الأرض ، ويتوعدهم بأفدح العقوبات ، فقام إليه رجل منافق وقال مقالة المنافقين : « أشْهدُ أيها الأميرُ لقد اوتيتَ الحكمة وفصلَ الخطاب» فأخزاه الأمير بقوله : كذبتَ . ذاك نبي الله داود يقول الله فيه :

« وآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وفصْلَ الْخِطَاب» فراح المنافق على اثر ذلك يتعثّر في نفاقه ...

ووقف رجل مؤمن شجاع فقال : انما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء وإنا لن نثنيَ حتى نبتلى . فقال له الأمير : صدقت !...

فقال الفتى المهذب للشيخ : — والله يا سيدي لقد أشعرُ الآن برقّة في قلبي وبعبرة تجول في عيني ، واني لأحسُّ حرارة الإيمان فيما فتح الله به عليك ، ولعلّي الساعة قد فطنت الى سر قوله تعالى :

إنما الْمؤْمِنُون الّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهُم وَإذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زادَتهُمْ إيمانا .

عيد المولد المحمّدي السّعيد

من قبل المولد الى بدء الوحي

لكل أمة عيد

للأمم على اختلاف ألسنتها وألوانها اعياد بواسم، ومواسم عزيزة ، وللشعوب المتباينة ذكريات كريمات ، تحرص على إحيائها . وتحفل بتمجيدها على تضاعيف الزمن ، ومن قديم الآباد . غير ان العيد الانساني الأكبر ، والموسم الروحي المشرق ، هو : عيد ميلاد سيدنا « محمد » بن عبدالله ، رسول الله ومجتباه الى الناس أجمعين ، عليه الصلاة والسلام .

كيف كان المجتمع قبل عهد محمد عليه الصلاة والسلام

منذ نيّف واربعة عشر قرناً ، كان المجتمع الانساني يعاني دوراً من ادوار الوهن والانحلال ، يكاد يشرف فيه على الفناء . كان يعاني وهناً في العقائد ، وفساداً في العادات ، وإباحة للمنكرات ، وافتناناً في اللذات ، وامعاناً في العداء واحتيالاً لاستلاب الحقوق ، وشغفاً بالحروب والغارات ، ومصادرة للعقول ، وتكبيلاً للآراء ، وإذلالاً للنفوس وقسوة على الضعاف ، واستعلاء من كل جبار في الأرض ، لا يحجزه قانون ، ولا يَزَعه وجدان .

في الفرس

حتى لقد قام في دولة الفرس – وكانت احدى الدولتين اللتين تسيطران على العالم – حتى لقد قام داعية وقـاح ، فزعم انه مبعوث من الله باباحة النساء والأموال للناس جميعاً ، وعرف هذا المذهب بمذهب (ماني ومَزْدَك) . ثم قام على عرش القياصرة – وهو العرش الثاني في ذلك الزمان – كلُّ من كانت ترشحه سيئاته ، وتندبه مآثمه وخطيئاته كتلك التي سموْها الامبراطورة « تيودورة » وهي فيهم فضيحة الانسانية ، ومأثمة البشرية ، ومع هـذا تعنو لها جباههم ، ويخر سجّداً أمامها القضاة والكهنة والقواد .

في الروم

اما الديانتان السماويتان : النصرانيـة واليهودية ، فلم يكن قد بقيَ منهما الا رسوم رسمتها الأهواء، وقامت عليها النزعات . فبلغ من عداء اليهودية للنصرانية يومذاك ان اشترى اليهود من الفرس ثمانين الفـاً من اسراهم ، ثم عرضوا رقابهم وبطونهم على الأسنة والحراب ذبحاً وتمزيقاً . فكان جزاء اليهود من الرومان ، ان امتهنت شعائرهم ، وبطلت اعيادهم، وجحدت حقوقهم ، وألغيت مجالسهم ، وسنّت القوانين لإذلالهم وإبادتهم ، وما نزلت الأديان الا للخير والمحبة والسلام.

في الهنـد

وهناك في افسح رقعة بالقارة الاسيوية ، كانت الامـة الهندية قد تفشى فيها الوباء الاخلاقي ، فعصف بالآداب والاخلاق والحياة والعفاف ، واخذت تنتشر بينها مذاهب الإباحة الخسيسة. فليس على الـكاهن الهندي من عار اذا ما اختص نفسه بكل عروس في ايامها الاولى ، زاعمـاً انه يبث في الزواج البركة والخير والنماء . وليس الامر غير الدنس والمحْق ، والضّعة والفحشاء .

في الجزيرة العربية

اما في الجزيرة العربية ، وبين القبائل البدوية ، فقـد كان الخطب جللاً

والداء عياء .

كان فيهم فضائل ، لكنها اختلطت بالرذائل. وكان في سجاياهم خير ، ولكن طغى عليه الشر ، فقتل النفس أيسر شئونهم ، وتقطيع الارحام اهون امورهم ، يثورون لأوهى سبب ، ويشبُّون نيران العداوة والبغضاء بغياً وعدواناً . ينفرون من الذل ويمدون ايديهم الى اسبابه ، ويهربون من الموت ويتدافعون على ابوابه ؛ غُلظت اكبادهم ، وتبلد احساسهم ، حتى ليَئِدون بناتهم صغيرات ، او يمسكونهن على الهون كبيرات ، او يدفعونهن الى البغاء مكرهات . فاذا ما نظرت بعد الى خسة عقائدهم ، وسخف آرائهم ، رأيت سبَّة العقل وسخرية الفكر ! رأيتهم يصنعون بأيديهم من الحلوى بعض آلهتهم ثم يعبدونها ، فاذا جاعوا يأكلونها !..

هكذا كان المجتمع الانساني يعاني في مرضه النَّوبة الآزمة القاضية ، ويتردى في الهوة الساحقة . فلا عدل ، ولا حق ، ولا طهر ، ولا عفاف ، ولا عقل ولا فكر ، ولا امن ، ولا سلام ... فكان من رحمة الله ومن عدله الاسمى ان يهيىء للانسانية العانية من يفك اسارها ويطلقها من اغلالها ، ويجلّي لها حقيقتها ، ويطهر عقائدها ، ويعيد عليها حريتها وارادتها ، ويبلغ بها ما اعد لها من رقي وعزة وكمال .

اختيار الامة العربية منبتاً للنبوة

وقد اختار الله من بين الأمم ، الأمة العربية لتكون منبتاً لنبيه المختار ، ومنشأ لدينه القويم ، ومبعثاً لهداية العالم ، ومَعْلماً لإرشاد الناس كافة . ذلك بأن في الغرائز العربية ، والطبائع البدوية ما يعين المصلح على ان يستنبت فيها فكراً مستقلا ، وحرية مهذبة ، وارادة حازمة ، ونفساً عزيزة ، وهمة عالية ، وبأساً شديداً ، وبدناً قوياً ، وجناناً جريئاً ، ومساواة شاملة ، وذكاء لامعاً . وتلك آلات البناء للمصلحين ، وتهيئة لعمل الدين . ولقد يساعد على نمو تلك الفضائل ما كان للطبيعة العربية من ميزات ورثَتْها عن الأجيال ، وحفظتها عن

الأقيال [1] . ففيها حرمة الجار ، وغوث الملهوف ، وحماية اللاجىء وفصاحة اللسان ، وبلاغة المقال، هذا كله الى فِطَر سليمة غَشيَتْها الأدران ، واستعداد كامل ران عليه الفساد . فاذا تقشع الدرَن ، وتكشف الفساد كان ذلك حرياً بأن يجعل من الأمة العربية قائدة الاصلاح ، ومهذّبة الشعوب ، ومَدْرَج النبوة وموطن الدعوة .

نسب النبي عليه الصلاة والسلام

وكان ان اصطفى الله نبيه محمداً عليه السلام، واصطفى لمنشئه الأمة العربية، ثم اصطفى منها اكرم قبائلها ، وأعرق بيوتها ، فكان نسبه الأزكى ، وهو يتنقل في آبائه واجداده نسباً كما وصفه البوصيري :

نسبٌ تحسب العلا بحلاه قَلَّدتْها نجومها الجوزاء
حبذا عِقدُ سؤدد وفخار انت فيه اليتيمة العصماء
لم تزل في ضمائر الكون تختار لك الأمهات والآباء

فكان من اجداده «كنانة» . وقد نقل «الحافظ» في شرح البخاري : « أن العرب كانت تحج الى كنانة ، لعلمه وفضله ، وكان على سنة «ابراهيم الخليل» لا يأكل وحده» ، وقد اثر له كما روي في السيرة الحلبية ، حكمٌ منسَّقة ، كتنسيق الدرر ، اذ يقول : رب صورة تخالف المَخْبَرة ، قد غرَّت بجمالها !! واختبر قبح فعالها ، فاحذر للصُّور ، واطلب الخبر .

الميزات التي عرفت لبعض اجداده

وكان من اجداده «مالك بن النضر» . وكان جليل الشأن ، عظيم الخطر ، حتى لقد أرَّخ العرب بموته ؛ وكان منهم «قُصَيٌّ» واسمه مُجمِّع . جمع قبائل قريش بمكة ، وكانت له الحجابة ، والسقاية ، والرِّفادة ، والندوة ، واللواء .

---

١ – القيل – الملك – وأصله قيّل والجمع أقيال .

ومنهم «هاشم» وسُمي كذلك لأنه أول من هَشَمَ الثريد واطعم الناس في السنين العِجاف ، وكانت مائدته منصوبة طوال المواسم للواردين اليها ، والصادرين عنها . وجدُّه الأقرب «عبد المطلب» وقد زاد على ابيه فكان من سماحته ، ووفرة كرمه ، وشرف انسانيته ، واكتمال رحمته : ان اطعم الوحوش والطيور ! وهكذا كان «عليه السلام» يتنقل في اصلاب السادة الغُر الميامين ، هم سراة العرب ، وذؤابات القبائل .

عبد المطلب

كان عبد المطلب مفطوراً على الخير أُلهِمَ نوعاً من الاعتقاد ، فكان رجلاً عظيماً ، صغرت لديه احداث الدنيا ، وألقي على روحه السكينة .

جاء «أبْرهَةُ الحبشي» ليهدم الكعبة المشرفة ، وعندها مجد العرب وتاريخهم ، وعليها صحف مُنَشرَةٌ من فخارهم - جاء «ابرهة» يغزوهم في عقر دارهم ، ومعه «الفيل» ارهاباً لهم وتخذيلا لجموعهم ، فماذا فعل عبد المطلب ؟ قال : «ان للبيت رباً يحميه» ثم جمع آله وذويه واخذ بالحلقة في باب الكعبة وأنشد :

لهُمَّ ان المرء يمنع رحله فامنع رحالك

هكذا لجأ « عبد المطلب » الى رب البيت ، في ثبات واطمئنان وتسليم ، فسمع الله لجيران بيته . وتخاذل الفيل ، وأصحاب الفيل :

أَلَمْ ترَ كيفَ فعلَ ربُّك بأَصْحابِ ٱلْفيلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيدَهُمْ في تضليلٍ ، وأرسَلَ عَلَيهم طَيراً أبابيلَ ، تَرْميهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سجِّيلٍ ، فجَعَلَهُمْ كَعصْفٍ مأكولٍ ..

نذر عبد المطلب

ومن قبل ذلك كان « عبد المطلب » قد نذر الله : - لئن بلغ أبناؤه عشرة من الذكور ليذبحن واحداً منهم قرباناً الى الله ، وقد كمل العدد ، وجاءته

الهواتف في النوم تستنجزه الوفاء بالنذر ، فراح يقترع بين أولاده على الذبيح منهم ، فأصابت القرعة ابنه « عبدالله » أحبّ الأبناء الى أبيه ، وألصقهم بشغاف قلبه ، ولكن « عبد المطلب » رجل مفطور على الخير . وقد صغرت لديه أحداث الدنيا اذا ما رضي عنه الهه ... فلا بد له من ان يفيَ بنذره !!!

اخذ بيَدِ ابنه « عبدالله » الى المذبح ، وقريش يقيمها هذا الأمر ويقعدها ومكة تموج لهول المصاب المنتظر ...

أمام اضطراب قريش ، ورغبتهم أن يجيل « عبد المطلب » أقداحَ القرعة بين ابنه وبين فداء من الإبل — أجال أقداح القرعة مرة ، ثم مرة ، وفي كل مرة ، تصيب القرعة « عبدالله » وتخطىء الفداء ، وعبد المطلب يزيد في الفداء حتى بلغ مائة من الإبل فأصابتها القرعة وذبحها « عبد المطلب » قرباناً الى الله ، وشكراً لِنِعَمه . ونجا من الذبح « عبدالله ».

لا شك كانت نجاة عبدالله قَدَراً من الأقدار الالهية ، التي تحمل في ثناياها عِظَة الحياة ورشد العقول . فلقد ظهر ان « لعبدالله » من الخطر الجسيم ، والأثر الخالد في تلك الدنيا ما لا يتسق والمُدْيَة في يد أبيه « عبد المطلب » أمام المذبح . !!!

نعم لقد كانت قريش كلُّها في مناحة وأسى . ولكنّ الأقدار كانت ضاحكة مستبشرة . بما أعدته لدنيانا من أفراح ، وأعياد ومواسم في مقتبل الأيام .

كان ذلك الحادث الجلل بملابساته وحواشيه وأعقابه بشيراً « بمحمد عليه الصلاة والسلام » ، بشيراً بسلامته ، وسلامة دعوته ، ووعداً من الله بنجاته ونجاة أمته ، وان اشتدت الخطوب ، وان فدحت الأرزاء ، وان استحكم اليأس والقنوط ...

* * *

بناء عبد الله بآمنة

كانت حادثة الفداء ، ونجاة عبدالله أبلغَ ما تكون الحوادث في تنمية الحب

بين عبدالله المفدّى ، وبين أبيه ، ان كان قد بقي نَماء يصل اليه هذا الحب ، فماهو الا أن خطب (عبد المطلب) لابنه عبدالله سيدةَ قومها ، النّقية المطهرة « آمنةَ بنتَ وهب » بن عبد مناف ، بن زهرة ، بن كلاب. فهي تلتقي بعبدالله في النسب الفارع الأطهر . ولم يمض على بناء عبدالله « بآمنَة » غيرُ يسير من الزمن ، ثم اعجلته الرحلة الى الشام ، للتجارة على عادة فتيان قريش ، فحضرته وفاته بالمدينة ، لدى اخواله بني عديّ بن النجار ، ولسيدنا محمد —عليه السلام— ثلاثة اشهر حملاً مستكناً .

* * *

ميلاد النبي عليه الصلاة والسلام وتسميته « محمداً »

تمت مدة الحمل ، وكانت الليلةُ الموقوتة في تاريخ الانسانية — الليلة الثانية عشرة ، او التاسعة من شهر ربيع الأول ، عام الفيل ، فوضعته امهُ « عليه السلام » في دار ابي طالب بشِعْب بني هاشم .

* * *

ولدته صلى الله عليه وسلم ، سليم الجسم ، مكتمل الخَلق . واضح القسمات ثم بعثت تبشر جده «عبدالمطلب» بالميلاد السعيد ، وبالمولود المشرق. (وعبدالمطلب) كانت لا تزال تعاوده احزانه على ابنه عبد الله ، الذي مات نازحاً غريباً ...

فلما جاء البشير بمولد الغلام ، أذهب الله عنه الأحزان ، فتهلل بشراً وأسرع الى الغلام المبارك ، فقبّله وسماه «محمداً» ونحر وأطعم ، وتصدق .

لم يكن هذا الاسم شائعاً في العرب يومذاك ، ولكن عبد المطلب قد ألْهِمه إلهاماً . وعبد المطلب مُلهم من قبل ، ومن بعد !.

أرضعته امه ثلاثة ايام . وكان من عادة العرب ، ان يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي ، ويرون ذلك انجبَ للولد ، وأرهَفَ للذهن ، وابعدَ عن حياة الحواضر ، التي تورث الملل ، والترف ، واللين .

وفاة امه عليه الصلاة والسلام

نزل مكة حينذاك نساءٌ مرضعات يلتمسن اطفـــال قريش ، ومن بينهن «حليمة السعدية» وكانت في جدْب وفاقة . فمـا ان ظفرت بالرضيـع المبارك ، حتى ظللتها البركات وأقبلت عليها الخيرات !.

فلما ترعرع عليه السلام في البادية ، ظهرت عليه مخـايل الخير وملامح البر .

فلما بلغ السادسة سافرت به أمه في زيارة أخوال ابيـــه بالمدينة وبينما هي راجعة حضرتها الوفاة ، (بالأبواء) وهي قرية بين مكة والمدينة .

ساعة الموت

استمعوا الى «أسماء» بنت ابي رُهْم ، تروي عن امها ساعة الوفاة ، قالت: « كانت آمنة أم النبي صلى الله عليـه وسلم ، في علتها التي ماتت بها ، وابنها محمد عليه السلام غلام يقعد عند رأسها . فنظرت آمنة الى وجهه، ثم قالت :

بارك فيك الله من غـــلام ! يا بن الذي من حومة الحِمَام
فُودي غـــداة الضرب بالسهام إن صح ما أبصرتُ في المنـام
فـــأنت مبعوث الى الأنام تُبعث في التحقيق والإسلام
دين أبيك البَرِّ إبراهـــام فاللهَ أنهاك عن الأصنـــام
ألاّ تُواليها مع الأقوام

ثم قالت: كل حَيّ ميت،وكل جديد يَبْلى ، وكل كبير يَفنى ، وانا ميتةٌ ، وذكري باق ، وقد تركتُ خيراً ، وولدتُ طُهراً . ثم ماتت..

***

ومهما يكن من تقدير لرواية بنت «ابي رُهْم » عن امها ، فان ما يعلو فوق الشكوك ، ويدخل في حدود اليقين ، أن هناك شعوراً مقتبساً من أعماق الحقيقة يتراءى لبعض النفوس الصافية الزكية ، كنفس آمنة المطهرة . فليس عجباً ان تتوسم في قسمات طفلها كل ما تضمنه نشيدها الشعرّي من آمال واحلام !.

تعلق الجد بحفيده

عاد محمد عليه الصلاة والسلام الى مكة، وهو صبي ، وقد تم له اليتم واكتمل، فلم تبق حنية من حنايا قلبه ، الا وقد خَلص حبها لجده « عبد المطلب» .وكان « عبد المطلب» به شَغِفاً ، وعليه حَدِبا ، فلم يكن يحلو له ان ينادِيَه الا بيا « ابني » او يتحدث عنه الا « بهذا ابني» .

لكن « عبد المطلب» لم يعش بعد « آمنة» اكثر من سنتين . فمات ومحمد عليه السلام يناهز الثامنة .

وهكذا تعهدت محمداً حياطة الله ، ورعَته عينُه، فكان في تلك السن ، وما حولها – أحسنَ قومه خلقاً ، واصدقهم حديثاً ، واعظمهم امانةً وابعدهم عن الدنس ، والفحش ، وسفسَافِ الامور .

رعاية الله وحياطته لمحمد عليه الصلاة والسلام

بُغضت اليه الأوثان ، وإخوانه عليها عاكفون . فلم يحضُر لها عيداً ، ولم يشهد لها موسما ، وكَرِهَ ما ذُبحَ على النصب فلم يَطْعمْ له لحماً ، وقال عليه السلام يتحدث عن نشأته :

« لما نشأتُ بُغِّضت إليَّ الأوثان . ولم أُهمَّ بشيء مما كانت الجاهليةُ تفعله الامرتين ، كان يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء بعدها حتى أكرمني الله برسالته » .

« قلت ليلةً لغلام كان يرعى معي ، لو أبصرتَ لي غنمي، حتى ادخلَ مكة فأسْمُرَ كما يسمُر الشباب ؟ فخرجتُ لذلك حتى جئت اولَ دار من مكة ، اسمعُ عَزْفاً بالدفوف والمزامير لعُرس فجلست لذلك ، فضرب الله على أذني ، فنمت ، فما ايقظني الا مَسُّ الشمس ، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك » .

★★★

ذلك النهج من السلوك ، انما هو التأهُّل للنبوة والاستعداد للشأن الخطير ،

هذا الجِد ـ في عبث الشباب ـ انما هو ارهاص للمعجزات !!

وهذا هو الأدب الإلهي ، الذي لم تجر العادة بأن تؤدِّب به نفوس اليتامى .

قال « ابو بكر الصديق » يخاطب « محمداً » عليه السلام : « لقد طفْتُ العربَ ، وسمعتُ فصحاءهم ، فما رأيتُ ـ ولا سمعتُ ـ مثلك احداً .. فَمَنْ أدَّبك ؟» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أدَّبني ربي فأحسنَ تأديبي .. »

محمد رسول الله

في شبابه وبعثته

مخايل العزة في طفولته عليه الصلاة والسلام

نشأ « محمد » رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيماً فقيراً ، ولكنه كان عزيزاً، كريماً ، فاذا كان اليتم يُذل نفساً ، أو كان الفقر ينكّس رأساً، فلقد رفع الله نفس هذا اليتيم فوق النفوس ، وقد أعلى رأسه على الرؤوس .

حكى « ابن هشام » أنه كان « لعبد المطلب » فراشٌ يوضع في ظل الكعبة تكرمةً له ، وخصوصاً به ، فلا يجلس عليه سواه ، وبنوه يحفّون من حوله، ولا يقربونه ، فكان « محمد » عليه السلام وهو غلام صغير ، يسير قُدُماً حتى يجلس مَجْلِسَ « عبد المطلب » فيأخذه اعمامه، ويؤخرونه ، فيرى ذلك « عبد المطلب » فيقول : « دعوا ابني هذا ، فوالله ان له لشأنا » ، ثم يجلسه معه على فراشه ، دون أعمامه ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه منه .

هكذا كانت الأقدار تدفع به « عليه السلام » الى مراتب الشرف ، وتتجاوز به منازل اخوانه ورفقائه ، الى حيث ينبغي أن يكون رأساً جليلاً عظيماً ، وان كان لا يزال نبتاً ناشئاً صغيراً !.

حلف الفضول

واستمعوا ، كيف اتسع شبابه النضير ، للأمر الخطير ، لقد ساهم « عليه السلام » وهو شاب ، في حلف يسمى (حِلفَ الفُضُول)) وقد انْعَقَدَ ، وتم في بيت « عبدالله بن جُدْعان » التيميّ أحدِ رؤساء قريش ، وكان المتحالفون بني هاشم ، وبني عبد المطلب ، وبني أسد ، وبني زُهرة ، وبني تيم بنِ مُرة ، وتحالفوا وتعاقدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها ، أو من غيرهم من سائر الناس ، الا قاموا معه على ظالمه حتى يُرَدَّ الحقُّ الى نصابه .

وان هذا الحلف في هذا المجتمع لعجيب !!؟ لكنه كان بقيةً من فضيلة لا تزال فيهم ، وقبساً من الخير يضيء بين أيديهم ، وليس احق من الشاب « محمد » عليه السلام – ليساهم في تربية الفضائل ، وهو الذي يقول بعد ذلك : « بُعِثْتُ لأتمِّمَ مكارِمَ الأخلاق » .

ولقد تحدث عليه السلام عن هذا الحِلف ، بعد أن شرفه ربه برسالته فقال : «لقد شهدت مع عمومتي ، حلفاً في دار « عبدالله بن جدْعان » ما أحبُّ أن لي به حُمْرَ النَّعم « اي أعز اموال العرب » ولو دعيت اليه في الاسلام لأجبْتُ » .

* * *

وان ذلك الحدث ، في هذه السن لشاهد بأن فطرته التي فطره الله عليها ، فطرةٌ مبرّأة خيِّرة ، بينها وبين كل خير ، وكل كمال ، أسبابٌ ، وصلاتٌ ، ووشائج !.

ولقد ذاعت في مكة محامده عليه السلام ، وشاعت خلائقه بين الناس ، وسَمتْ به همَّته فرأى الا يكون – في صباه المبارك ، كَلاًّ على عمه « ابي طالب » ، ولا عالة يقتاتُ من فَضل ما يجودُ به عليه ، رأى – عليه السلام – ان يعيش في ظلال عمله وكده ...

صدقه وأمانته

ترامت انباء صدقه وامانته ، وبركته بين المضاربين في اموالهم والمتّجرين فيها ، وانتهى ذلك الى « خديجة بنت خويلد » وهي في قريش أعقلُ امرأة ، وأكمل عقيلة ، ولها مالٌ جمٌّ ، وتجارة واسعة ، فقالت تحدِّث نفسها : هل لي ان أنمّي تجارتي على يد هـذا الأمين الصادق ، الذي يتسامى كماله عن السن ، وتتعالى سيرته عن نزعات الشباب ، وتترفع نزاهته وطهارته عن القـالات والشبهات! ثم أرسلتْ اليه ليتجر في مالها، فقبل وسافر مع غلامها «مَيْسَرَة» في تجارتها الى الشام ، وما ان عاد « عليه السلام » من رحلته ، حتى كان ربـح التجارة وافراً ، واخبار رحلته تسبقه الى مكة ، فتملأ شعابهـا ، ويتنقل بها « ميسرةُ » في أحيائها فيسمر عليها المكيُّون ...

زواجه عليه السلام من خديجة

تَلفَّتَتْ «خديجة» الى هذا الأمر ، ثم ترقّت أفكارهـا ، فتطلعت لأن تتصل بهذا الأمين الصادق ، صلةً أوثق من «الاتجار» واقرب من «المضاربة» في الأموال ...

روى «ابن سعد» من طريق الواقدي عن «نفيسة بنت مُنيَة» قالت : كانت «خديجة» امرأة حازمة شريفة، مع ما اراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذٍ اوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، واكثرهم مالاً ، وكل قومها حريص على زواجها لو قَدَر على ذلك : ارسلتني الى «محمد» عليه السلام دسيساً [1] بعد ان رجع من تجارتها في الشام ، فقلت : يا «محمد» ما يمنعك أن تتزوج ؟ فقال : ما بيدي ما أتزوج به . قلت : فإن كفيتَ ذلك ، ودُعيتَ الى المـال والجمـال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال : فمن هي؟ قلتُ : «خديجة؟!» فرضي عليه السلام وخطبها له عمه «ابو طالب» وقال في خطبة الزواج: «الحمد لله الذي جَعَلنا

---

١ – مستطلعة .

من ذرّية ابراهيم . وزرع اسماعيل وضِئضِىء[1] مَعَدٍ وعنصر مُضَر ، وجعلنا حضنَة بيته ، وسُوّاس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً ، وحرماً آمنا ، ثم ان ابنَ اخي «محمد بن عبد الله» لا يوزَن برجل الا رجح به ، فإن كان من المال قُلٌّ ، فان المال ظِلٌّ زائل ، وامر حائل [2] ، «ومحمد» مَن قد عرفتم قرابته ! وقد خطب إليكم راغباً كريمتكم «خديجةَ بنتَ خويلد» وبذل لها من الصداق من مالي ، ما عاجله وآجله — اثنتا عشرة اوقيةً ذهبا — وهو والله بعد هذا ، له نبأ عظيم ، وخطر جليل» .

***

تمّ هذا الزواج الذي كان له ابعدُ الآثار في تاريخ الدعوة الاسلامية ، ولخديجة يومئذ اربعون سنة ، وهي ثَيِّب تُوفي عنها زوجها «ابو هالة» ولسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسٌ وعشرون سنة . وقد اجتمع لهذا الزوج كلُّ معنى من معاني المودة ، والرحمة والوفاء ، والبر والحنان ، والسعادة والألفة . وقد أولَدها «عليه السلام» جمع نسله ما عدا «ابراهيم» فانه من مارية [3] «القبطية» .

بقي رباط هذا الزواج الميمون وثيقاً ، لا تزيده الايام والسنون الا توثيقاً وتدعيماً ، فلم يشبْ صفاءه شائبة ، ولا بدرت على طَوالِ أيامه بادرةٌ ، يأوي محمد (عليه السلام) الى آله كلما حَزبَتْه الشدائد ، او هزّته الأحداث ، فلا يجد من زوجه الا ما يمسح عنه الأوصاب ، ويضع عنه الآلام ، ويفتح نفسه للفيض الرّباني العظيم ..

مدة زواجه الاول

خمس وعشرون سنة ، وفيها ميعة الصِّبا وعنفوان الشباب ، يقضيها هذا

---

١ — الضئضىء ؛ الاصل والمعدن .

٢ — حائل ؛ متغير .

٣ — مارية القبطية — احدى جاريتين ، اهداها له — عليه السلام — المقوقس — عظيم مصر وحاكمها على عهده — صلى الله عليه وسلم — .

السيد الأنزه الأكرم ، والرسول المعظّم صلى الله عليه وسلم في بيئة ، ان ارتقتْ عن السِّفاد ، فإلى شر انواع الزواج ، ومع هذا لا يُعرف عنه في تلك السِّن الجامحة ، إلمامةٌ بمأثمة ، ولا نزعة الى معصية ، ولا عَبَثٌ كما كانوا يعبثون ، ولا طيش كما كانوا يطيشون . ولو علم اعداؤه (وهم كُثر) مغمزاً في سيرته ، او انحرافاً في جادّته ، لطاروا بها ، تشهيراً وإعلاناً ، وتسفيهاً وإيذاءاً ، ولكن هيهات هيهات ! فإنها عصمة النبوات .

أليس هذا منتهى الكمال الانسانيّ ، نهايةُ القصدِ في الرغائب البشرية والعفافُ والتصوُّن من الشهوات الدنيا ، والنزوات السفلى ، الا ان تلك الشمائل هي من نعم الله التي امتَنَّ بها على رسوله ، فقال له : وأمَّا بنعمَةِ ربِّك فحدِّثْ .

بقي عليه السلام – مقيماً على عهد الزوجية خمساً وعشرين سنة اخرى حتى أسند في حدود العِقْد السادس من عمره الأزكى ، لا تمتد عينه الى غير زوجه ، ولا يُشرك في بيته سواها ، ولا يبغي بها بديلاً ، حتى صارت شيخةً مكتهلة ! ولكن حبه لها لم يزَلْ فتيا ، ذلك بأن محمداً عليه السلام انما يشرع لنا بفعاله مقاصد الزواج ، ومعانيه العليا من التعاون والتعاطف ، والتراحم ، واقتسام أعباء الحياة لا مجرد المتاع .

ولقد بقيت كل هذه المناحي على تقدم (خديجة) في السن ، سليمةً ناميةً قوية ، فوفى لها عليه السلام أقدس الوفاء واكمله ..

كان وفياً لأيامها ، وفياً لذكراها ، وفياً لصديقاتها ، حتى لقّب عام وفاتها (بعام الحزن) . ولقد بلغ من دوام ما يذكر عليه السلام مآثر خديجة ان كانت عائشة تغار منها ، وان لم ترها ! ! قالت من حديث لها : لقد ذكر عليه السلام «خديجة» يوماً من الايام ، فأخذتني الغيرة فقلت له : هل كانت إلا عجوزاً ، قد ابدلك الله خيراً منها ؟ فغضب عليه السلام ثم قال : لا . والله ما أبدلني خيراً منها ، آمنت بي اذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذّبني الناس ، وواستني في مالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء .

* * *

هذه أسرار الألفة في الزواج، وتلك منابع السعادة في الأسرة ، فَلْيحَوِّل راغبو الزواج مقاصدهم عن اللذات الفانيات الى الرغائب الساميات .

لقدْ كانَ لكمْ في رَسولِ اللهِ أُسْوَةٌ حسَنَةٌ ، لِمَنْ كان يرْجو الله واليوْمَ الآخرَ ،وَذكرَ الله كثيراً [1].

بلوغه عليه السلام خمساً وثلاثين سنة

انظر الى هذا العقل الكامل، والى الحكمة المحمدية ، لقد أسبغا على الانسانية عدلاً واحساناً ! ورفعا عن المجتمع جوراً وطغياناً !

لما بلغ « عليه السلام» خمساً وثلاثين سنة جاء سيلٌ جارف فَصَدَع جدران الكعبة ، فأرادت قريش هدمها ، ورفعها وسقفها ، لكنهم اشفقوا من الهدم ، إجلالاً للكعبة ، واعظاماً للبيت العتيق، فتقدم الوليد بن المغيرة وبدأ في الهدم، وقال : ما اردنا الا الاصلاح ؛ فتبعه القوم . ولما اخذوا في البناء ، اعدوا لذلك نفقة ليس فيها مهر بَغيّ ، ولا بيع ربا . وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم وبينهم « العباس بن عبد المطلب» و«محمد» عليه السلام .

الحجر الاسود

فلما انتهوا الى «الحجر الاسود» وهو الرمز العتيق الأقدس، الذي اسلمته الايدي الكريمة – ايدي «ابراهيم» و«اسماعيل» وديعةً في ذمام العرب ، وفي حياطة الاجيال . لما انتهوا الى وضع الحجر اختلفت القبائل ، وتنازع الاشراف ، وتعاظم تنافسهم في وضع الحجرِ مكانه . ولقد كبر الخلاف ، وتشعّب حتى كادت تتأجّج نيران حروب لا تنطفىء جُذاها ، ولا يعرف مداها، فأدركتهم عندئذ «بمحمد» عليه السلام رحمةُ الله فتحاكموا اليه . ورأى – ورأيه الأحكم – أن يبسط رداءه ، وأن يضع فوقه الحجرَ الأسودَ . وقال : لتأخذ كلُّ قبيلة بناحية من الثوب ؛ ثم أمرَهم برفعه جميعاً ، حتى انتهوا الى موضعه ،

---

١ – سورة الأحزاب – الآية ٢١.

فأخذه بيده الشريفة ووضعه في مكانه ! . وهكذا انطفأت الفتنة بأصالة رأيه وحقّ قوله : «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين» .

وهكذا رضيَتْ قريش بتحكيم (محمد) عليه السلام في الأمر الجلل الخطير ، وما كان أسنّهم ، ولا أوفرهم ثراءً ، ولكنّ شمائله قد أعدته لعظائم الامور ، وأمانته قد رفعته فوق حزازات الصدور ...

***

ولقد شهد له بكرائم المحامد ألد أعدائه (النضْرُ بنُ الحارث) من بني عبد الدار حيث يقول في ملأ من قريش :

لقد كان « محمد » فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم فيكم ، واصدقكم حديثاً وأعظمكم امانةً ، حتى اذا رأيتم في صُدْغَيه الشيبَ ، وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر !؟ ولا والله ما هو بساحر .

من هذا ترون ان سيرته الشريفة ـ قبل مبعثه ـ كانت فوق الظّنات ، وأسمى من ان تتعلق بها الشبهات .

مقدمات النبوّة وبدء الوحي

فلما بلغ «عليه السلام» سن الكمال واستكمل الأربعين ، كان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل ضوء الصبح . ثم حبّب إليه الخلاء والانفراد، للتفكير والاستهداء الى معالم الحق ، فبينما هو «بغار حراء» متزوداً للإقامة أياماً ، على عادته ، اذ جاء الوحيُ ، لسبع عشرةَ خلت من رمضان للسنة الحادية والاربعين من ميلاده الشريف .

تمثل له الروح الأمين «جبريل» ولقّنه عن ربّه أفضل التنزيل . قال له : اقرأ ! فقال : ما انا بقارىء ! ـ لا اعرف القراءة ـ كرر ذلك مرات ـ وكان المَلَكُ بعد كل جواب يغطّه [1] ؛ حتى يبلغَ منه الجهدُ مبلغه . وحكمة ذلك ،

---

١ ـ يضمه اليه .

ان تتغلب فيه الروحانية ، على البشرية ، وليستعد لتلقي الفيوضات الالهية . !

اول ما نزل من القرآن

فلما أرسله الملك في الثالثة قال له : « إقرأ باسم ربِّك الذي خلق ، خلق الإنسان من عَلقْ ، إقرأ وَربُّك الأكرَمُ ، الذي علم بالقلم : علّم الإنسان ما لم يعلم »[1] أي كن قارئاً ، وان كنتَ أمّياً ، وذلك باسم ربك وبحوله وقوته وليس ذلك بمتعاظم على قدرته – تعالى – فهو الذي خلق الانسان الناطق ، من علق – من دم متجمد – ولم يكُ شيئاً ، فهو أقدر على جعلك قارئاً ، لآيات ربك ، وعلى تعليمك من الكتاب والحكمة ، ما لم تكن تعلم ، كما علّم الانسان بالقلم ، وبغير القلم نواميسَ الكون ، وروائع الوجود .

كيف تلقت زوجه النبأ

رجع عليه السلام بهذه الآيات الى (خديجة) يرُجف فؤاده ، ولكن قد اكتمل رشاده ! فقال زمّلوني زمّلوني ، فزمّلوه ، ولفّفوه بالثياب ، حتى ذهب عنه الروع ؛ فأخبر (خديجةَ) الخبرَ ، وبَشّها ذاتَ نفسه ، ورجا لديها العون ، واستطلع عندها الصواب ، وقال ، وروعةُ لقاء الملك لا تزال ماثلةً أمام عينيه : لقد خشيتُ على نفسي ! فماذا كان جواب (خديجة) ؟

استمع الى العقل الرجيح ، وانظر الى النفحات العلوية كيف تتمثل في الصُّوَر الانسية – استمع الى أكرم الزوجات تدرك زوجها في احرج الساعات وتستنقذه عند اشتداد الحيرات . انها تخاطبه في ثبات الموقنات الصادقات . فتقول : والله ، ما يُخزيك الله ابداً ، إنّك لتصلُ الرحم ، وتحملُ الكَلَّ ، وتُكسِب المعدوم ، وتُعين على نوائب الحق .

ثم شاءت (خديجة) ألاّ تدع سبيلاً يتسرّب منه الخوف الى فؤاد زوجها الأمين ، وأرادت أن تحقق صدق إلهامها في شأنه . فذهبت الى ابن عمّ لها اسمه

---

١ – سورة الفلق .

(ورقة بن نوفل) وكان يكتب الانجيل ، وقد تنصّر في الجاهلية ! فقالت له: « اسمع من ابن أخيك » فقصّ محمدٌ (عليه السلام) ما رأى وما سمع ، فابتدره (ورقة) وقال : هذا هو الناموس [1] الذي نزّل الله على موسى ! ثم قال : يا ليتني فيها جَذَعا [2] اذ يخرجك قومك ! - فعجب محمد « عليه السلام » أن يعاديه قومه وهو فيهم اليوم ، المؤتمن المهيب ، والمستشار الأمين ، فقال لورقة : أوَ مُخْرِجِيَّ هم ؟ قال : نعم . لم يأت رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به ، الاّ عُودي ، وان يدركني يومك ، أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم يلبث ورقة أن مات . .

فتور الوحي

وهكذا عاد « محمد » عليه السلام ،وقد ذهب عنه الروع وجاءته البشرى ، وأخذ يشتاق الى لقاء الملك ، ولكن الوحي كان قد فتر ، بل انقطع زمناً ، ولعلّ ذلك لكي يشتد شوقه اليه ، وتتهيأ نفسه الى تلقيه ، فلما تراخت الأيام ، عَظم عليه الأمر وجعل يتلهف لملاقاة الملك ، ويأتي شِعاف الجبال ، حتى لقد همّ بأن يقذف بنفسه ، خوفاً من قطيعة ربه ، بعد أن شاهد نور الحق ، ورأى نعمة الله الكبرى بما أوحِي اليه ...

فبينما هو يستقبل السماء ويستوحي ، اذ سمع صوتاً ، واذ هو صوت الملك المعهود ! فَرُعِب منه ، وذكر ما وقع له في المرة الأولى ،وأسرع الى بيته وقال : دثّروني ، دثروني ،فأنزل الله تعالى : يأيُّها المدثّر قُمْ فأنذِرْ - حذّر الناس من عذاب الله ، وربّك فكبّر - خُصّه بالتعظيم ، ولا تشرك بعبادته

---

١ - الناموس : السر .

٢ - جذعا : شاباً جلدا .

أحداً .وثِيَابَكَ فطهِّر ـ نزِّه نفسك ، وجَمِّل ظاهرك ـ والرُّجْزَ فاهجُر ـ دعْ أسباب العذاب ، وتجنب ما يشوبُ الكمال .

اوائل المستجيبين للدعوة

وقد تلقى « محمد » عليه السلام تلك الأوامر ، ورأى أن الأمرَ جدٌ ، وما هو بالهزل ، وأن العرب واهل مكة ، أشدُّ الأقوام حفاظاً بتراث الآباء ، وتقديساً للأصنام ، وقدَّر عليه السلام ان نجاحَ الدعوة ، يتطلب منه الإسرار قبل الإعلان !! فشرع يدعو الى دين الله في خَفاء وحذر ، فكان أولَ مستجيب له (خديجة بنتُ خويلد) زوجته ، (وعليٌّ) بن ابي طالب ابن عمه (وزيد بن حارثة) مولاه (وابو بكر الصديق) صديقه وخليله . حتى اذ ما دخل في الاسلام ثلاثون ونِيّف ، اختار لهم (عليه السلام) دارَ (الأرقم بن أبي الأرقم) وكان احد الثلاثين الأولين ، ثم جعل يعلمهم الدين ، ويقرئهم القرآن الكريم ، واذا بالوحي يلاحقه ، حتى يبلغ به من سورة « الحِجر » قوله تعالى : فاصْدع بما تـُؤمَر ، وأعرض عن المشركين .

الجهر بالدعوة

فما هو الا ان امتثَل أمر ربه ، وصَعِد فوق الصَّفا ، فجعل ينادي : يا بني فهر ، يا بني عَديّ ، فجعل الرجل اذا لم يستطع ان يخرج ، ارسل رسولاً ، لينظر الخبر ، وكان فيهم « أبو لهبِ بن عبد المطلب » فقال عليه السلام : ـ أرأيتُم لو أخبرتـُكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تـُغير عليكم ، أكنتم مُصدقيّ ؟ قالوا : نعم ! ما جربنا عليك كذِباً.قال : ـ فإنـّي نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد ـ فقال« أبو لهب »: تباً لك ! ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله في شأنه : تَبَّت يَدا أبي لهب وتَبّ ... ...

ثم التفتَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الى عشيرته الأقربين فقال :

إن الرائد لا يكذب أهْله ، واني لو كذبتُ الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررتُ الناس جميعاً ما غررتُكم . والله الذي لا اله الا هو ، اني لرسول الله اليكم خاصةً ، والى الناس كافةً . واللهِ لتموتُنَّ كما تنامون ، ولتبعثنَّ كما تستيقظون ، ولتحاسَبنَّ بما تعملون ، ولتجزونّ بالاحسان احساناً ، وبالسوء سوءاً ؛ وانها لجنةٌ أبداً أو لنارٌ أبداً ..

المكافحة في سبيل الدعوة المحمدية

النبوة فوق البطولة

هذه صفحة محمدية مليئة بالدروس والعظات تجلت فيها أسرار العظمة النبوية، باهرة ، جليلة ، مجيدة ، خالدة . هي الآية الالهية الكبرى . التي تُصدِّقُ محمداً عليه السلام في حديثه عن الله ، فليس أحد يقوم بمثل ما قام به ، ثم يَلْقى ما لقِيَ من عَنَت ، وأهوال ، وشدائدَ ، ويبقى مع ذلك أميناً على عهده ، وفياً لدينه حتى يظهره الله على الدين كلّه — ليس ذلك الا أن يكون نبياً مؤيداً بشديد القُوى ، وأن يكون كتابه تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى .

كان أساس دعوته عليه السلام « التوحيد » وأنْ يقتلع الشرك من جذوره فلا يُبْقي على شيء من هياكله المتداعية، ولا يتسامح في رسْم من رسومه الواهية « وإلهُكُمْ إلهٌ واحدٌ لا إله الا هُو » .

إيقاظ العقول الغافلة

غير ان القوم من حوله كانوا أعداء ما جهلوا ، وان كان سعادةً ونعيماً ؛ أحباء ما ألفوا ، وان كان شقاءً وتعاسةً ، فأعدوا العُدّةَ ليصدوا عن سبيل الله ، وحشدوا كل ما استطاعوا من قوة ، وبطش ، وغدر ، ودهاء ، وأعد لهم « رسول الله عليه السلام » من ثباتِ جنانه ، وصحةِ عزمه ، وصدق يقينه ، وصبر نفسه ، جيوشاً موصولة بجيوش ...!!

لم يكن المشركون على بصيرة من إشراكهم ، ولا على بيِّنة من عقـائدهم وانما كانوا يقلدون آباءهم ، فانطلق « عليـه السلام » يسفِّه أحلامهم ، وينعي عليهم فسادهم ، ويحقِّر آراءهم ، ويقبِّح تقليدهم ويتحدث اليهم بخطاب الله :

« وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ ، قالوا بَلْ نَتَّبِـع ما أَلْفَيْنـا عليه آباءَنا !! أَو لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعقلونَ شيئًا ولا يَهتدُون »[1] .

* * *

« وإِذا قِيلَ لَهُم تعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللهُ وإِلى الرَّسول ، قـالوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا ! ! أَوَ لَوْ كانَ آباؤُهم لا يعلمونَ شيئًا وَلا يَهتدون »[2] .

« وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنزلَ اللهُ قـالوا بَلْ نَتَّبِـعْ ما وَجَدْنا عليه آباءَنا ، أَوَ لَوْ كانَ الشيطان يَدْعُوهم إِلى عذابِ السَّعير ؟ ! »[3] .

* * *

بمثل ذلك الخطاب ، كان لسان الوحي يقرِّعهم ، ويؤنِّبهم ، فما هو الاّ ان هاج هائجهُم ، فخرجت أضغانُهم ، وطاشت ألبابُهم ، وراحوا يَتَفَنَّنُون « لمحمد » عليه السلام ، في طريق الإيـذاء ، ويعرضون عليه مُغرِيات الدنيا لِيَكُفَّ عمّا هو بسبيله ، وما دروْا أن دنياهم كلّها ، ومتاعَهم جميعَه ، انما هو دَبْرُ اذُنِه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتحت قدمه ، وأن قرّة عينه ، وراحة

---

١ ـ سورة البقرة : الآية ١٧٠ .

٢ ـ سورة المائدة : الآية ١٠٤ .

٣ ـ سورة لقمان : الآية ٢١ .

نفسه ، أن يُعليَ كلمة الحق ، وأن يغسل أدران الإنسانية ، وأن يبشر بالحسنى وأن يدعّم الفضيلة ، وأن يؤديَ رسالته كما أمره الله ...

ضروب من إيذاء المشركين

لهذا أخذ عليه السلام يستقبل المحن ، ويتلقى التعويق ، علياً في نفسه عزيزاً في قبيله ...

كان أبو جهل – قبحه الله – عدواً لنفسه ، وعدواً لمحمد عليه السلام. وكان فيه جبروتٌ ولكنه جبروت ذليلٌ ، لا يتماسك أمام رهبة الحق ، فكان كلما لقي محمداً عليه السلام يتعبد بجوار الكعبة ، نهاه عن عبادته وعن صلاته ، فشاهده مرة يصلي ، فقال له : ألم أنهك عن صلاتك هاهنا ؟ وما كان لمحمد – عليه السلام – أن ينتهيَ لنهي (أبي جهل) ولا أن يعبأ بهذا الغرور الطائش ، فأغلظ لأبي جهل في الرد ، وحذره ، وتهدّده فعزّ على (الطاغوت) أن يسمع أسلوب التهديد ، وسرت في نفسه حميّةُ الجاهلية ، وخُيل اليه أن ما لَهُ وعديده يغني عنه شيئاً ، فقال: يا محمد ، أتهدّدني ، وانا أعزُّ أهل الوادي ناديا ؟ فنزل الوحي بقوله تعالى :

« أَرَأَيْتَ الذي يَنهى عَبْداً إذا صَلَّى ؟ أَرَأَيتَ إن كانَ على ٱلْهُدَى ، أَوْ أَمَرَ بالتَّقْوَى ، أَرَأَيْتَ إنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ، أَلَمْ يَعْلَمْ بأَنَّ ٱللهَ يَرى ، كلا ، لَئنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بالنَّاصِيَةِ ، ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئةٍ ، فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ، سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ ! ! كَلاَّ ، لا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِبْ » .

أئمة الكفر

لقد كانَ عليه السلامُ يَغشَى مجتمعاتِ قريش ، وهمْ ألدُّ أعدائه ويتحرى لِقاء رؤوسهم ، ليصارحهم بآرائه ، لا تأخذه منهم رهبةٌ ، ولا يقيم لجبروتهم

وزناً ، واستَمِعوا كيف كان عليه السلام حريصاً عليهم مغنياً بهدايتهم :

أوْ لم (عقبةُ بن أبي مُعَيْط) وليمةً دعا اليها رؤوس الكفر وصناديدَ الإشراك ؛ وكان (عقبة) على فجوره وطغيانه جاراً لمحمد عليه السلام ، فدعاه فيمن دعاه ، فلبى الدعوة ، ولما صار في دار (عقبة) ودُعيَ الى الطعام ، خاطب عقبة ، فقال :

«لقد أجبتُ دعوَتك ، ولكن لا آكل لك طعاماً ، حتى تؤمن بالله» فنطق (عقبةُ) بالشهادة . وانتهى أمر هذا الحادث الى (أبيٍّ بنِ خلَف) الجمحيّ ، وكان صديقاً (لعقبة) . فقال له : ماشيءٌ بلغني عنك؟ فقال : لا شيء . دخل داري رجلٌ شريف ، فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهدَ له ، فاستحييتُ أن يخرج من بيتي ولم يطعمْ ، فشهدت له. فقال (أبيٌّ) : وجهي من وجهك حرامٌ ، ان لقيتَ محمداً فلم تطأ عُنقَه وتلطم وجهه ! ، فلما رأى (عقبة) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اعتدى عليه ، كما أراد خليله فأنزل الله في سورة الفرقان :

« وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ على يَدَيْهِ ، يَقُولُ يا لَيْتَني ٱتَّخَذتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ، يا وَيْلَتا لَيْتَني لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً ، لَقَدْ أَضَلَّني عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَني وَكانَ ٱلشَّيْطانُ لِلإِنسانِ خَذُولاً » .

وحَسْبُ (أبيٍّ بن خلف) أن يُقرَنَ مع خليله في صَفد من أصفاد جهنم ، تغمره الندامة ! بعد أن صار سَلفاً ومثلا للآخرين . نعم ضُربَ مثلاً لقُرناء السوء ، وأحلاف الرذيلة ...

لم يقف القوم في عدائهم عند حدّ ، ولا أجملوا يوماً في الرد ، بل كانوا جامحين جموحاً جاوز المدى ، واتخذوا من العداء العام سبيلاً لإنكار حقوق المسلمين الخاصة ، واستباحة أموالهم ، في استخفاف وتهكم وازدراء .

الآيات تنزل في وصف المشركين

كان لرجل من المسلمين المستضعفين اسمه (خبّاب بنُ الأرَتّ) دَينٌ على (العاص بن وائل) من كبراء قريش، فتقاضاه دينه، فقال له العاص: أليس يزعم محمدٌ هذا الذي انت على دينه، ان في الجنة ما يبتغي أهلها، من ذهب أو فضة أو ثياب؟ قال خباب: بلى. قال: فأنظرني الى هذا اليوم، فسأوتى مالاً وولداً، وأقضيك دينك. فأنزل الله فيه من سورة مريم:

« أفرأيتَ الذي كفرَ بآياتنا وقالَ لأُوتينَّ مالاً ووَلَداً، أطّلَع الغَيب، أم اتخذَ عند الرحمن عَهْداً؟. كلا. سنكتب ما يَقُولُ، ونَمُد لَهُ مِنَ العذابِ مَدًّا، ونَرِثُهُ ما يَقولُ ويَأتينا فرداً ».

***

حسبُ (العاص بنِ وائل) أن تبقى قصته على خلودِ الذكر الحكيم أسلوباً ممتعاً يتهكم به القدر، ويسخر منه كل مؤمن في تهكم!.

***

ولقد كان بعضهم، ومنهم (الأسودُ الأسدي) يجلس على قارعة الطريق فاذا مرّ به المسلمون، وهم قليلون، تغامز بهم، وضحك منهم، فلا يزيدهم ذلك الا احتقاراً للمستهزئين سموّاً بنفوسهم، وترفعاً بأخلاقهم. وأي شرف أعلى من ان تنزل الآيات الكريمات، تبُث محامدهم، وتنشر على الدنيا محاسنهم، ثم تبشرهم بكريم الرُّجعى، وتنذر خصومهم بسوء العقبى:

« إنَّ الذين أجرَموا كانوا من الذين آمنوا يَضْحَكونَ، وإذا مَرُّوا بهم يَتَغامزُون، وإذا انقلبُوا إلى أهلِهمُ انقلَبُوا فَكِهينَ، وإذا رَأَوْهُمْ قالوا إن هؤلاء لضالون، وما أرسلوا عَلَيهِمْ حافظين!! فاليومَ الذينَ

آمنوا من الكُفَّارِ يَضْحَكُون ، على الأرائك يَنظرون ، هل ثُوِّبَ الكفَّار ما كانوا يَفْعلون ؟ » .

* * *

لم يكفِ هؤلاء المشركين المناكيد ، ان صرفوا أنفسهم عن الحق ، بل كانوا يَسْعَون في آيات الله معاجزين ، فـــاذا سمعوا أن فلاناً يستيقظ وجدانه ، أو يتفتح قلبه لشعاع من الخير ، أخذوا عليه المسالك وقعدوا له كل مرصد ، حتى يجعلوا بينه وبين الفضيلة سداً حصينا .

كان (الوليد بن المغيرة) عمُّ (ابي جهل) من عظماء قريش ، وهو في سعة من العيش ، وقد كان للحق احياناً انطلاق على لسانه ، ولكنّ كبرياءَهُ وحرصَه على مكانته في قريش ، كانا يقذفان به الى حيث يتلمس الخلاص من سلطان الحق !.

سمع (الوليد) القرآن مرة من محمد عليـــه الصلاة والسلام — فقال لقومه من بني مخزوم : والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ، ما هو من كلام الانس ! ولا من كلام الجن ، وان له لحلاوة . وان عليه لَطلاوة ، وان اعلاه لمثمر ، وان أسفله لمُغدق ، وانه يعلو وما يُعـلى . قال (الوليد) ذلك وتسامع به قريش ، فكبر الأمر عليهم ، وفزعوا الى انفسهم ! وتصايحوا : لقد صَبأ الوليد الى دين محمد ! فانبرى (ابو جهل) يعالج الأمر في أوله ، وقال : انا اكفيكموه ...

ذهب (ابو جهل) الى (الوليد) وجلس أمامه حزيناً ، مكتئباً ، ثم ما زال به حتى هاجه . وأحمى انفـَه ، فانتقـل (الوليد) الى مجمع قريش . واذا هو قد أعدّ وهيّأ مقالة السوء ، يقطر منها اللؤم ، فقام وسط الجمع وقال : تزعمون انّ محمداً مجنون ! فهل رأيتموه يهوِّس ؟ وتقولون انـــه كاهن ! فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتدعون انه شاعر ! فهل سمعتموه يتعاطى الشعر قط ؟ وتزعمون أنه كذّاب ! فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا في كل ذلك : اللهم لا . ثم صاحوا به : اذن فما هو ؟ ففكر قليلاً ، ثم قال : ما هو الا ساحرٌ ! أما رأيتموه يفرّق بين الرجل واهله ، والوالد وولده ، والسيد وعبده ... فارتجَّ النادي فرحاً

بالأسلوب اللئيم المتدلّي ! الذي يتساقط من فم الوليد ..

ولقد كان الله سبحانه يحصي مآثم (الوليد) ثم يُلبسه اياها ، ويَسِمُه بها فقال تعالى :

« ذَرْني وَمَنْ خَلَقْتُ وَحيداً ، وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً ، وَبَنِينَ شُهُوداً ، وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمهِيداً ، ثم يَطْمَعُ أَنْ أَزيدَ . كلاّ ، إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً ، سَأُرْهِقُهُ[1] صَعُوداً ، إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ، فقتِلَ كيفَ قَدَّرَ ، ثم قُتِلَ كَيفَ قَدَّرَ ، ثم نظرَ ، ثم عَبَسَ وَبَسَرَ ، ثم أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ، فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرْ ، إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرْ ! ! سَأُصْليهِ سَقَرَ » .

* * *

أصدق الحديث وهو الحديث

لقد كان من شرّ الآثام التي كان الباطل يَعْمَدُ اليها ، ويحاول أن يُلَبِّسَ بها على الحق — ما كان يفعله (النَّضرُ بن الحارث) من بني عبد الدار .

لقد كان يجلس قُبالةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا رآه يتلو القرآن وينشرُ أعلام الحق ، قال للملأ من قومه : يا معشر قريش ! هلموا اليّ ! فإني أَحْسَنُ من « محمد » حديثاً . ثم يشرع ، فَيُلفِّق حديثاً عن ملوك فارس ، ويقُصُّ أقصوصةً من أقاصيصهم . وكان (النضر) لبقاً في هذا الباب لباقةً شيطانيةً ، فنزل القرآن ، يَدْمَغُه ويشّهر به ، ليكون الصورةَ الواعظةَ لكلّ من يشتري الضلالة بالهدى ، قال تعالى :

---

١ — سأكلفه عناء ومشقة .

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشتري لَهْوَ ٱلحديثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَها هُزُواً أولئك لهم عذابٌ مُهينٌ ، وإذا تُتْلَى عليه آياتُنا وَلَّى مُسْتكبراً كأنْ لَم يَسْمَعْها كأنَّ في أُذُنَيْهِ وَقراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَليم » .

* * *

لجوء الرسول الى الله كلما اشتد الكرب

هكذا . هكذا ، كان الباطل يطارد الحق ، وكان يبتدعُ الأساليب في محاربته !! والحقُّ وداعٌ ساكن . لا يطيش ، ولا يَرْهَب ، وكلما تجمعت السفاهة وتلاقت النزوات ، كان « عليه السلام » يناجي ربه : « اللهمَّ إنّي أشكُو إليك هَواني على الناس ، أنتَ ربُّ المستضعفين ، وأنتَ ربّي ، الى مَنْ تَكِلُني ! إنْ لم تكن ساخطاً عليَّ فلا أبالي » .

أرأيتم كيف تُستعذَبُ الآلام على مرارتها ؟ لكيْ ينتصرَ الحق ويطمئن الضمير ، ويرضى الله ؛ ولقد رضي الله وصدق وعده .

* * *

وعد الله يتحقق للصابرين

« إنا كفَيناكَ المستهزئين الذين يَجْعَلونَ مَعَ ٱللهِ إلٰهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعلمُون »

وانظروا . كيف كانت عاقبةُ أمرهم ؟؟ لقد قتِل (أبو جهل) و (النضر بن الحارث) و (عقبةُ بن أبي مُعيْط) وكلهم مَهينٌ ، ذليلٌ ، يَخِرُّ لوجهِهِ بين الأسنَّة والرماح الاسلامية .

ومنهم من اصيب بشرٍّ ألوان المرض ، حتى عُذِّب في الدنيا ، وغـــادرها تشيعه همومه وآلامه ، وتملأ نفسَه الحسرة والندامة « كأبي لَـهب » و « العاص ابن وائل » و « الوليد بن المغيرة » ...

* * *

لقد صدق الله وعده ، ووفى اللهُ الصابرين أجرهم ، فمكَّن لهم في الأرض ، وظهر مصداق الآية المُـبَشِّـرَة :

« وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّة وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ » .

تألق الدعوة الإسلامية

سريان الدعوة وانتشارها

سطعتِ الدعوة الاسلامية ، وتألقت في آفاق الدنيا . وقد سارت معها فضائلها ، وذاعت محامدها ، فأينما وقع شعاع منها ، فقد سطعت معه الفضيلة الاسلامية ، وانبلجت لديه الشمائل المحمدية ، فمن شاء ان يعرف كيف بسط الاسلام جناحيه على المعمور من الكون ، وكيف استطاع احد خلفائه ان يصوِّر للناس بسطة الملك الاسلامي ، وترامِيَ أقطاره ، فلم يجد غير أن يخاطب «السحابة» التي تمر به ولا تمطره ، فيقول لها : « أمطري حيث شئتِ ، فإن خراجك سيُحمل إلينا ! ».

الفضيلة سلاح المسلم

من شاء أن يعرف كيف كان ذلك كله ؟ فليوقن ، أنها الفضائل ، والسجايا والأخلاق الاسلامية ولا شيء سواها ...

فما الجيوش المتكاثفة ، ولا العدة المذخورة ، ولا السيوف الملتمعة ولا السهام ولا القسيُّ ، ولا الرماح ؛ ما كل ذلك بكاف في غزو أمة . ولا في انشاء دولة اذا لم تسعده الفضائل ، وتمده المحامد ، ويشيع فيه الخلق العظيم ، وكذلك كان الاسلام ، وكذلك كان المسلمون الأولون .

* * *

كانوا يغزون بفضائلهم نقائصَ أعدائهم، وكانوا يغالبون بأخلاقهم ما لا يفعل الحديد والنار، فمن اول الفضائل التي ارتكزت عليهـــا الدعوة الاسلامية ثم طالت وسمَقَت: فضيلة الثبات على الحق - ثبات أعيا القوى، وفكّك العرى، وترك الأعداء حيارى يتخبطون !

الدعوة الصاعدة والدعوة الساقطة

آذوْا صاحب الدعوة (عليه السلام) حتى كاد يَنفدُ الإيذاء ! فما أجـــدى عليهم، فرجعوا الى انفسهم، واستلهموها: إلامَ يرمي صاحب دعوة بدعوته؟ فألهمتهم شهوات نفوسهم، وأصداء رغائبهم، واصوات عوالمهم التي يعيشون فيها - ألهمتهم - ان الدُّعاة انما يطلبون بدعوتهم جاه الملك، او كنوز المال، أو سؤدد الجاه، ولا شيء غير هذا؛ الا ان يكون بهم مس من الجن فيعالَجوا من مسِّهم! هكذا ألهمَتهم نوازعهم الهابطة! فأرادوا ليجربوا ذلك مع صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام، وما علموا ان عزة الفضيلة، وجاه الحق، وسؤدد الدين، وكنوز الخير هي وحدها مرامي الدعوة المحمدية ! وما مالُهم، وسؤددهم وجاههم، الا ستارٌ لأرجاسهم، وشباك للأبالسة من شياطين الانس والجن :

يُوحي بَعضُهمْ الى بَعْض زُخْرفَ القوْلِ غُرُوراً .

انظروا كيف جرت التجربة - تجربة المشركين - مع «محمد» عليه أفضل الصلاة والتسليم - لقد قَصُرت أفهامهم عن ادراك الفضائل التي صحِبتِ الدعوة المحمدية . ورأسها - فضيلة الثبات على الحق .

الثبات، الصبر، الصلابة، التضحية

فاجتمع أعداؤه - عليه السلام - بعد أن سئموا من كثرة ايذائـه !، وضَجروا من صنوف إعْناتِه، اجتمعوا، فقال سيدهم المطاع فيهم، وهو (عتبة ابن ربيعة) يا معشر قريش: ألا اقوم لمحمد فأكلّمه وأعرض عليـه أموراً علّه

يقبل بعضها ، فنعطيه اياها ويكفّ عنا ؟ .

فقالوا : يا أبا الوليد ، قم إليه فكلّمه . فذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي في المسجد ، وقال : يا بن أخي : إنك منا حيث قد علمتَ ! من خيارنا حسباً ونسباً ، انك قد أتيتَ قومك بأمر عظيم ، فرّقتَ به جماعتهم وسفّهت احلامهم ، وعِبْتَ آلهتهم ودينهم ، وكفّرت من مضى من آبائهم ! فاسْمَعْ مني ، أعرِضْ عليك اموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها !؟ فقال عليه السلام : قل يا أبا الوليد ، أسمع . فقال : يا بن اخي ، ان كنتَ تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من اموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا . وان كنت تريد شرفاً ؟ سوّدناك علينا ، حتى لا نقطع امراً دونك . وان كنتَ تريد مُلكاً ، ملّكناك علينا ، وان كان هذا الذي يأتيك رُؤىً من الجن ، لا تستطيع رده عن نفسك ؟ طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابعُ على الرجل حتى يداوَى . فقال عليه الصلاة والسلام : لقد فرَغتَ يا ابا الوليد ؟ فقال : نعم . قال فاسمع مني :

« بِسم الله الرَّحمن الرَّحيم . حٰمٓ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحمنِ الرَّحيم ، كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُون ، بَشِيراً وَنَذِيراً فأعرضَ أكْثَرُهم فَهُمْ لا يَسْمَعُون » .

وما زال عليه السلام مسترسلا في كلام رب العزة . يمتَحُ من النمير الصافي ، حتى قام (عتبة) ووضع كفه على فمه يمنعه الكلام !.

فلنقفْ هنا لننظر كيف يكون الثبات على الحق أمام فتنة الدنيا ، وزهرة الحياة ! أليس ما ذكره (عتبة) هو كل ما تشتهيه نفوسٌ ، وتهوي اليه قلوبٌ ، وتتطلّع نحوه عيون ؟ ألست ترى عنده مصارع عَزمات ، ومَزالق هِمّات ، وفناء عبقريات ؟ نعم ، ان ما ذكره (عتبة) هو غمزٌ للثبات ، وامتحانٌ قاسٍ للبطولات . وما كان من جواب عند السيد الأعظم صلى الله عليه وسلم إلا أن

يكون بلسان الوحي ، فيتولى الله افحامهم، ويقوم على ازعاجهم ، ويكذّب ما كانوا يظنون .

ألا فلْتَعلّم هذه السيرة النبوية من شاء أن يتعلّم ، الثبات على الحق والا فلا وِسعهُ علمٌ ولا تعليم !

الشجاعة الاسلامية

وهناك نوع من الثبات وان شئت فسمّه (الشجاعة الاسلامية) كانت تطير مع الدعوة في الآفاق ، فتلقي الرعب في قلوب الأعداء ، وماذا ترى في قوم تقوم شجاعتهم ، مقام جيوش أعدائهم ؟ أليس هذا صِنفاً من الناس ، قدمّيزته أخلاقه ، وسجاياه وعقائده ، فمنذا الذي كان يقف أمامهم، وأيُّ قِرْن يقوى على لقائهم ؟ .

* * *

لقد كان رأس المسلمين وقدوتهم – عليه السلام – في يوم من أيام الجهاد التي مَحّص الله بها الصدور ، وامتحن فيها الثبات – كان «عليه السلام» واقفاً وقد تفرق الناس من حوله ... وأرجف بعضهم بموته ، ورماه رام فجرح وجنته ، وأنشب حديدة في ثَنيّته ، فلما نُزعت ! نُزعت معها ثَنِيّتاه ! فنزف دمه الذكي ! وهو مع هذه الشدائد ، لا يولّي ظهره للقتال ، ولا يفكر الا في أن يعلوَ فوق جبل ؛ ليأخذ مكان أعدائه ، فيتحول – عليه السلام – متماسكاً وهو يقول : لا ينبغي لهم ان يعلونا ، اللهم لا قوة لنا الا بك ! وما زال يناضل حتى أقصى أعداءه عن أماكنهم ؛ واجتمع عليه انصاره واصحابه بعد التفرق والشتات ...

العقائد تسمو على القرابات

ومن الفضائل التي عزّت بها الدعوة الاسلامية : فضيلة التضحية ؛ وفضيلة

البذل والسخاء . كانت تضحياتهم مضرب الأمثال ! وأعظمُها وأعزُّهـــا ، تركهم ديارَهم ، وأموالَهم ، وآباءهم ، واخوانهم وعشائرهم هجرةً بدينهم ، وفراراً بعقائدهم الى بلاد نازحة ، يفعلون ذلك طيّبةً نفوسُهم ، رحيبة صدورهم. حتى لقد كانت امرأةٌ مسلمةٌ تركب بعيرها في طريق هجرتهـــا الى الحبشة ، فسألها سائل : الى أين يا أُم عبد الله ؟ فقالت : لقد آذيتمونا في ديننا ، فسنذهب في ارض الله حيث لا نؤذى .. هكذا كانت الأمةُ الإسلامية تقتحم الأخطار ! ، لا تبالي شيئاً ما دامت قد سلمت لها عقيدتها ..

ولقد تعرف من طبائع النساء شغفاً بالقطين ، وولوعاً بالمقام ، ورغبة عـن الارتحال ، لكنها الدعوة الاسلامية بدّلتهُنّ خلقاً آخر ... !

* * *

ولقد بلغ من سمو المعاني التي اوحت التضحية ، بأعز الأعزاء ! أن كان (أبو عُبيدة) الفاتح الأعظم ، يغزو في موقعة ، من ايام المسلمين الأولى ، وابوه (الجراح) يحارب في صفوف الأعداء ، وكلما تلاقيا أشاح (ابو عبيدة) بوجهه عـــن أبيه ، فيعرض له ابوه ! ولا يبتعد ولا يزدجر ! فما هو الا أن حمل عليـه «ابو عبيدة» مغالباً نوازعَ القُربى . مضحياً بكل الأواصر . مُفدّياً آصرة الإسلام وحدها ! وتلك لعمر الحق اسمى درجات التضحيات . وانه لأعز انواع الفداء ...

البذل والسخاء أخص صفات الايمان

ثم هناك فضيلة ، تزاحم الفضائل السالفة ، وقد أينعت وأثمرت مع الدعوة الإسلامية ، تلك هي فضيلة البذل والسخاء ، حين تستحكم الأزمات ، ويتملك الشحُّ نفوساً ، ويُوقى الشحَّ نفوسٌ .

أراد بعض المشركين ان يختبر سخاء (أبي بكر) في سبيل دينه ، وان يبادره بالامتحان ، وأن يجعل موضوعه المال ، فشرع المشرك (امية ابن خلف) يعذب عبدَه (بلالاً) المسلمَ تعذيباً يقطّع الأكبـاد ، على نظر (ابي بكر) وبمحضره ،

فقال له ابو بكر : اما تتقي الله يا (امية) في هذا المسكين ؟ الى متى تعذّبه ؟ قال أمية : انت أفسدته فأنقذه مما ترى ! ، فاشتراه منه وأعتقه .

وقد شرّف الله هذا الصنيع العالي . فخلّده في آي الذكر الحكيم ، قال تعالى :

«فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى ، لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقى[1] ، الذي كَذَّبَ وَتَوَلّى ، وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتقى[2] ، الذي يُؤْتِي مَالَهُ يتزكّى ، وما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ، إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعلَى ، وَلَسَوْفَ يَرْضَى» .

* * *

ومن أشرف السخاء والبذل ما كان من استجابة المسلمين ، يوم عزّ المال ، واشتدّ القَحْط . وكان زمن عسرة ، ودعا رسول الله المسلمين الى الجهاد في (غزوة تبوك) التي أُريد بها إلقاء الرعب في قلوب (الروم) فماذا حملت الدعوة الإسلامية معها الى تلك الأطراف ؟ حملت آيات السخاء ، واحاديث البذل ، ترويها وتتفيأ ظلالها ، وتستعين بها في سبيل الله .

فلقد تقدم (عثمان بن عفان) طيّبةً نفسه ، وأخرج من حُرّ ماله عشرة آلاف دينار ، وثلثمائة بعير بأحمالها ، وخمسين فرساً بعُدّتها – ثم لم ير في كل ذلك ما يستحق ان يفاخر به اللهم الا شيئاً واحداً ! هو «دعوة» دعا له بها رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قال :

اللّهُمّ ارض عن عثمان فإني راضٍ عنه ..! . فكانت تلك الدعوة لعثمان مناط فخره ! لا يفخر الا برضاء الله ، ورضاء رسول الله .

ولقد أرسلت النساء يومها كل ما يقدرن عليه من حليهن ، وهذا هو البذل

---

١ – هو «امية بن خلف» ومن على شاكلته .

٢ – هو «ابو بكر الصديق» وأمثاله .

بأعز المذخور ...

* * *

على أكف هؤلاء كانت تتمجد الدعوة الإسلامية ! وانظروا كيف كان تدافع الصحابة رضوان الله عليهم الى ساحات الجهاد ! وكيف كان يبلغ منهم الحزن ، اذا قعد بهم الفقر عن نفقات الجهاد ... لقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الساعة الرهيبة ساعة العسرة – وهو يجهز الجيش – جاءه سبعة رجال من فقهاء الصحابة ، الفقراء ، يطلبون ان يُحملوا الى مواطن الجهاد ، فقال لهم محمد عليه السلام : لا أجد ما أحملكم عليه ؟! وكان حسبهم ما فعلوا وفاءً لعقائدهم ، لكنها نفوس لا تسكن الى هذا القعود ، وهناك اليوم المشهود .. فماذا فعلوا بعد ما رأوا وسمعوا ؟ «تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزَنا ألا يجدوا ما يُنفقون .. »

ووالله ، ان النفس لتهتز هنا اهتزازاً ، وتنفعل إكباراً وإعظاماً ، لذلك الخلق الاسلامي القويم ، فواهاً لنفوس لا يطيب لها القعود في ظلال السلم قدر ما يسعدها لجهد في سبيل الله !.

ولقد شاء الله ألا يطول حزن هؤلاء الأبطال ، فقد كان السخاء الاسلامي لا يزال يهزّ نفس عثمان بن عفان ، والعباس بن عبد المطلب فجهز الأول بعضهم ، وأذهب حزنهم ، وجهز الثاني بعضهم ورقأ دمعهم ...

بتلك الأخلاق ، وهاتيك الفضائل أتم الله نعمته على رسوله ، وعلى المؤمنين وأظفرهم بأعدائهم ، وأدال ديناً هو الشرك ، ومكّن لدين التوحيد . فلما تكامل نصر الله ، ورجع المسلمون الى ديارهم ، سادة حاكمين ، بعد ان غادروها خائفين متسللين لم يُزهوا بالظفر ، ولا اختالوا بالفتح ، ولا أعملوا سيوف الانتقام في أعدائهم ، لأن الانتقام سليل الحقد وحاشا لصدور المسلمين ان تنطوي على الأحقاد ..

العفو عند المقدرة

فما كادوا يستقرون بعد الفتح الأعظم ، حتى كان اعداؤهم يرتعدون من

الخوف والوجل : عيونٌ شاخصة ! وافئدة هواء ! تنتظر ما عسى ان يحل بها من التنكيل ، بعد العداء الطويل . هنا ، كانت الدعوة الاسلامية تحمل معها العفو مع المقدرة . والصفح ساعة النصر . وكانت تجعل الرضا والغضب «للحق وللفضيلة» فاذا ما سطع الحق ، وسادت الفضيلة ، فما وراء ذلك غير السلام ، والأمن والمغفرة ، والسماحة ، ولقد قالها عليه السلام كلمة خالدة على الأجيال ! قال لأعدائه : ما تظنون أنّي فاعل بكم ؟ فوقفوا في رجاء الخائف ، وأمل المعتذر ، وقالوا : « خيراً ، أخٌ كريم ، وابن أخ كريم » .قال لهم : « اذهبوا فأنتم الطُّلقاء » . ولله ما يقوله البوصيري :

وإذا القطعُ والوصلُ كان لله تساوى التقريب والإقصاءُ
ولو أنّ انتقامه لهوى النفس لدامت قطيعةٌ وجفاء
فعلهُ كله جميل ! ! وهل ينضح إلا بما حواه الإناء

* * *

تلك فضائلهم واخلاقهم ، ومعها ايامهم – ايام الله !! وها نحن ، وها هو حاضرنا ! فنرجو أن نكون خير خلف لخير سلف ...

الدعوة الاسلامية قامت على الاقناع

نحاول – بتوفيق الله أن نكشف عن وجه الصواب ، في نشوء الدعوة الاسلامية ، وكيف امتدت . فلقد توالت عليها الحملاتُ الظالمات ، فأصابت منها السماحة الإسلامية ، والرفق المحمديّ ، حتى لظنّ الأحداث والمفتونون ، أن العقيدة الاسلامية قامت على القسر والإذلال ، وان الفكرة المحمدية كانت تختبىء في أغماد السيوف ، وتطلُّ من أسنان الرماح !..

ولقد زاد في ظلم الماضي ان كثيراً من ابناء المسلمين ، انصرفوا عن تفهُّم الآيات البينات ، فهم لا يعرفون الكتاب الا أمانيَّ وانهمْ إلاَ يظنُّونَ !.

وأذكرُ أن قد تهيأ لرجل تثقّف تثقيفاً حديثاً ، له فكرٌ ، وعنده رأي .

تهيأ له ان يجلس ، فيستمع لكتاب الله ، حتى اذا بلغ استماعُهُ قوله عز وجل : «اقتُلوهم حيثُ ثَقِفتُموهم ، وأخرِجوهم من حيثُ أخرَجوكم» تمايل رأسه يمنةً ويسرةً ، وقال : لعلَّ في هذا التحريض سِرَّ انتشار الإسلام ! وذيوع الدعوة ! وكيف املوْها على الناس املاء !.

لقد هالني من المثقف هذا الوهم الخاطىء ، والرأي الفائل ، وأردت ان انقل حديثي معه ، فأقول :

ما شَهِد التاريخ الانساني، ولا عرف مؤرخو الحروب ، شريعةً كالشريعة الإسلامية من اول امرها أجنَح للسِّلم وارغب عن الاكراه والقسر ، فلما اقتضاها نظام الاجتماع ان تحارب ، كانت في حروبها مدافعة ، لا مهاجمة ، رفيقةً بارة ، رحيمة .

حاربت ، ولكن، حروب اصلاح وتأديب ، لا حروب عدوان واستئصال.

لقد بقي صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة يدعو الى الحسنى ، ويبصّر الناس بالفضيلة . ويَلقى هو وأتباعه من عنت الأعداء ، وضروب الإيذاء ما جعل المسلمين يفرون بعقائدهم ، مهاجرين الى بلاد الأحباش كرّتين !. وكلما استشرى الخصوم في الشر ، وقد كانوا لا يعرفون اجمالاً في الانتقام ، كان عليه السلام يتلقى عن الله ما يثبِّت به فؤاده. من آيات بينات :

« خُذِ العَفْو وأمر بالعُرْفِ وأعْرِضْ عَنِ الجاهِلين »

« يأيُّها الذين آمنوا عليكم أنفسَكُم لا يضرُّكم من ضلَّ اذا اهْتدَيْتُم » .

« لا إكراه في الدِّين قد تبيَّن الرُّشدُ من الغيِّ » .

ولقد كانت الدعوة السلمية ، تنفذ من وراء الحُجُب ، وتقتحم أقفال القلوب فكانت القبائل وانصاف القبائل تدخل في دين الله افواجاً تاركةً وراءها جبروت

الأقوياء ، مسارعة الى تكثير هؤلاء الفقراء الضعفاء . .

* * *

أسلم (ابو ذر الغِفاريّ) وتقبّل الدعوة بوجدانه الحي ، ثم رجع الى قومه ، فأخذ يعرض الإسلام على عقولهم ، ويخاطب مكان الشعور من وجدانهم فاهتدى بهدايته ، نصف قبيلته .

وأخذ نصارى (نجران) يحررون عقولهم بتحرير الاسلام .

وشرعت قبيلة (بني الأشهل) كلها تعتنق الدين الحق ، في يوم واحد ! وهكذا شاع الاسلام ، وتنقل بين القبائل . غير مفروض على الناس قسراً ، ولا مضروب على عقولهم كرهاً . بل لم يكن له ولأشياعه من الوسائل غير النصح ، والتلطف في العرض ، والحكمة والموعظة الحسنة . فمن ذلك :

« ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمةِ والموْعِظَةِ الْحَسَنةِ وجادِلْهُم بالَّتي هي أَحْسَن » .

* * *

ثلاثة عشر عاماً والجهاد لم يشرع ، والعقول السليمة تتقبل الدعوة ، والطبائع الصحيحة تسارع الى العقيدة .

ولقد نعلم انه لا ينتشر الخوف ولا يعم الإرهاب ، الا حيث يعوز الدليل ، ويعز البرهان ، وتسقط الحجة ، وذلك كله كان في معسكر الجحود والطغيان — في معسكر أعداء الاسلام — اما المسلمون فقد ناضلوا بالحجة ، ودافعوا بالدليل ، وتحاكموا الى العقل .

القتال دفاعاً عن النفس والعقيدة

فلما صار المسلمون جماعة ، وكوّنوا مجتمعاً ، لم يكن بدعاً ان يدافعوا عن انفسهم اذا

اعتدي عليهم ، ولم يكن بدعاً ان يحموا دعوتهم اذا وقف الطغيان في سبيلها . فإن دفع الشر بالشر ، عند القدرة عليه ، وعند نفاد الوسائل السلمية وساعة الدفاع عن النفس ، هو طبيعة الوجود الانساني . ولم تجىء الشريعة الاسلامية خالقةً إنسانيةً اخرى ، وانما هي جاءت تهذب جموح الانسانية وتقوِّم من انحرافها ، وتهيىء لها طريق الكمال الذي أعدَّ لها .

وكذلك شُرع القتال في الاسلام ، بعد ثلاثة عشر عاماً من الدعوة لأمرين يتطلبهما صلاح المجتمعات ، وتستند عليهما طبيعة العمران .

الأمر الأول : الدفاع عن النفس عند العدوان عليها .

الأمر الثاني : الدفاع عن الدعوة اذا ما وقف في سبيلها الجبروت ، يعذب من آمن مختاراً ، ليرجع عن دينه مستكرها ، او يحول بين المؤمن وبين إيمانه ، او يمنع الداعي من أداء دعوته .

واول ما نزل من الآيات في شأن القتال قوله تعالى :

« أُذِنَ للذينَ يُقاتَلونَ بأنهم ظُلِمُوا وإنَّ اللهَ على نصرِهم لَقَديرٌ ، الذين أُخرِجُوا مِن دِيارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنا اللهُ ولولا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومَساجِدُ يُذْكَرُ فيها اسْمُ اللهِ كَثيراً ، ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُه إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عزيز ، الذين إنْ مَكَّنَّاهُمْ في الأرض أقاموا الصلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ ، وأمَرُوا بالمَعْرُوفِ ونَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ ولله عاقِبَةُ الأُمورِ » .

* * *

تلك آية انتظمت سبب القتال في دقة ، وتحديد : وهو دفع الظلم عن أفراد المجتمع الاسلامي ، والوعد بنصر الذين يدافعون عنه .

وقد بسطت الآية أنواع هذا الظلم ، وجعلت من أفحشه اخراج المؤمنين من ديارهم لأنهم أصحاب عقيدة – يقولون ربنا الله – ولا يُذلون انسانيتهم لشريك آخر ، ثم ختمت الآية بالقاعدة الاجتماعية العمرانية ، التي تكشف عن ضرورة تلك الحروب من قديم الأزمان ، على اختلاف الأديان – تلك الضرورة هي اقرار الحق في الأرض ، والإبقاء على المعاهد التي تكوّن الوازع الديني وتنميه ، وتذكّر الناس بربهم ، تلك المعاهد هي (المعابد) الصوامع ، والبيع ، والمساجد . فهي مدارس الأديان ، وفيها سعادة الانسان ، وعندها مصارع الطغيان – فاذا تكشفت الحروب بخذلان الباطل ، واستُنقذت الانسانية من أغلالها ، كان شأن المنتصرين أن يعمروا الأرض ، وينشروا العدل ، ويقيموا حدود الله ، ويبذلوا المعروف ، ويحرصوا على الفضيلة ...

وانك لتقرأ من سورة « الممتحنة » آية بارعة ، تقرر الفكرة الاسلامية السّامية اذ تقول :

« لا يَنهاكُمُ اللهُ عن الذين لَم يُقاتِلوكم في الدِّينِ ولم يُخرِجُوكم مِنْ دِيارِكم أَنْ تَبَرُّوهم وتُقْسِطُوا إليهِمْ إنَّ اللهَ يُحبُّ المُقْسِطين . إنَّما يَنهاكُمُ اللهُ عَنِ الذين قاتَلوكم في الدِّين ، وأَخرَجُوكم مِن دِيارِكم ، وظاهروا على إخْراجِكم أَن تَوَلَّوْهُم ، ومن يَتوَلَّهُمْ فأولئك هم الظالمون » .

* * *

علاج الهزات الاجتماعية

تتابعت الآيات بعد ذلك ، تؤكد ان الحروب الاسلامية ليست حروب عدوان ، ولا انتقام ، وانما هي مقابلة الشر بمثله ، وعلاج للفساد الاجتماعي ، ببتر الأعضاء الفاسدة .

ثم أرادت الآيات البينات ان تُبرز معنى خطيراً ، لا مندوحة منه لوقاية

الاجتماع ، ذلك هو تصوير الاعتداء على العقائد بصورة هي انكى ، وأنكر من الاعتداء على النفوس ، ومن إزهاق الأرواح ! وأنه متى استُبدّ بعقائد الأمم ، فقد آذنت بالفناء ، وأشرفت على الموت ، وذلك يأباه الوجود ، فلا مفر من دفع هذا الشر ـ شر تعذيب الناس ، ليرجعوا عن عقائدهم ! ولا مفر من مقاومة الأعداء ، متى نشروا تلك الفتن ، ولا مفر من تجاوز بعض الحدود ، اجتناباً لأسوأ الشرور ، فقد حرُم القتال عند المسجد الحرام صيانة للمكانة التاريخية القديمة ، وإجلالاً لرمز السلام بتلك البقعة التي جعلها الله مثابةً للناس وأمناً ، وشرفها بنسبة البيت اليه تعالى اذ يقول :

« أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ للطائفين والعاكِفين والرُّكَّع السجودِ » .

وما فتئت مكة ، في شتى الأزمان ، مرعية الجناب ، مهيبة الحرمة ، لا يحل صيدها ، ولا يسفك الدم في أرجائها . ولكن ... متى مشت عندها الفتنة ، ومتى ابيحت لديها الكرامة الانسانية ، فليكن التحلل من ذلك المحظور ، وليكن لقاء شر بشر ، وليُقضَ على الفتنة في مهادِها ، ولو كان مهادُها البيت الحرام !...

فاذا انتهت الفتنة ، وأسبابها ، وصار الناس أحراراً لا يدينون بالعبودية الا لله وحده ، فقد كرُمت الانسانية ، وبطلت اسباب الحروب ، وليكن من المسلمين عند ذاك العفو والغفران ، لأن ربهم وصفهم بأنهم رحماء بينهم ، يقول تعالى : —

« وَقَاتِلوا في سبيل ٱللهِ ٱلذين يُقاتِلونَكم ، وَلا تَعتَدُوا ، إنَّ ٱللهَ لا يُحِبُّ ٱلمعتدين ، وٱقتلُوهم حَيثُ ثَقفْتُمُوهم ، وأخرجوهُم مِن حيث أخرجوكم ، والفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ » .

لأن الفتنة اعتداء على العقيدة والوجدان ، وذلك شرٌ من قتل الإنسان .

« وَلا تُقاتِلوهم ، عِند ٱلمسجدِ ٱلحرام حتى يُقاتلوكم فيه ، فإن قاتَلوكم فاقتلوهم ، كذلك جَزاء الكافرين ، فإن ٱنتهوا فإن ٱلله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكونَ فِتْنَةٌ . ويكونَ ٱلدِّينُ لله فإن ٱنتهوْا فلا عُدوان إلا على الظالمين ، الشَّهرُ الحَرام بالشهر الحرام ، والحرمـــاتُ قِصاصٌ ، فمن ٱعْتدى عَليكم ، فاعْتَدُوا عليه بِمِثْل ما ٱعْتدى عَليكم ، واتَّقوا ٱلله ، واعْلموا أن ٱلله مع ٱلمتقين » .

منع قتال المحايدين والوادعين

أرأيتم كيف ختمت الآية محذّرةً من الإسراف في القتال ، مخوفة من التمادي في الحروب ، وفي ذلك تنبيه للضمير الانساني الى تقواه ، والى الخوف من الله ، فلا تكون الحروب الا حيث يوجد العدوان حتى لا تجمح النفوس ، وتذهب في عنان الانتقام كل مذهب .

أرأيتم كيف كان النهي عن الاعتداء قاطعاً ، معلناً في رهبة وقوة : ان الله يبغض المعتـدين . ثم جـاءت آية بعد ذلك ، تبين من اسباب الحروب ما هو منطو تحت القاعدتين الأوليَيْن ، في اسـلوب يستثير النخوة ، ويهز المشاعر ، فقال تعالى :

« وَما لكم لا تقاتِلونَ في سَبيلِ ٱلله والمستضعفين من الرجال والنِّساء والولدانِ ٱلَّذينَ يَقولونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هٰذه القَرْيَةِ الظالِمِ أَهلُها . وَٱجعَلْ لَنا مِنْ لَدُنكَ وَليًّا . وَٱجعَلْ لَنا من لدنك نصيراً » .

وسبيل الله ، هو القضاء على فتنة النفوس ، وتعذيب الأجسام ، وإرهـاب

المجتمع ، حتى لا يرتد النـاس عن دينهم ، ومن ذلك ، ما كان يجده المستضعفون الذين أسلموا بمكة ، ولم يجدوا الى الهجرة سبيلا ، لقد عذّبهم الطغاة ، وآذوهم وفتنوهم ، فكانوا يضرعون الى الله طالبين الخلاص مستنجـدين بإخوانهم في دار الهجرة ، فـكان حرياً ان يجد هؤلاء ، وامثالهم من ذوي العقائد مَن يحميهم ، ويدفع الأذى عنهم ، ويصون حرية اعتقادهم .

* * *

ان مما يتسق مع الأغراض السامية ، التي شرعت لأجلها الحروب الاسلامية : المبادىء الكريمة التي انتظمتها الآية الحكيمة التالية :

« فَإن اعْتزلوكم فلم يُقاتلوكم وَألقَوْا إليكم السَّلمَ فما جعل اللهُ لكم عليهم سبيلا »

فكل من اعتزل الفتن ، وجانب الشر وبقي مسالماً محايداً فلا سبيل لمسلم عليه ، أما اذا كان جنوحه الى السلم ذبذبة ونفاقا ، وهو يحرض في الخفاء ، على العداوة والبغضاء ، فقد وصفته الآية الآتية وحدّدت جزاءه :

« ستجدونَ آخَرينَ يُريـدُونَ أن يأمنوكم ويأمنـوا قَومَهم كلما رُدُّوا إلى الفتنة أُرْكِسُوا فيهـا ، فإن لم يَعْتزِلوكم ويُلقُوا إليكُم السَّلمَ ويَكُفُّوا أيْدِيَهُم فَخُذُوهم واقْتلوهم حَيثُ ثَقِفْتُموهُم وأولئِكُم جَعلْنا لَكُم عَليهم سُلْطاناً مبيناً » .

* * *

وقد كان هناك شعار عام يلازم الحروب الاسلامية ويسير معها في ميادينها ،

ذلك هو الحرص على السلام ، والرغبة الصادقة في أن يتحقق لبني الانسان أمنهم وسلامتهم ، وسكينتهم وحريتهم ، فاذا ما لاح بارق السلم ، وتحقق الخير المرجو من الحروب كان على المسلمين واجب هو المبادرة الى السلام ! وأن يستمسكوا بعراه . قال تعالى :

«وإن جنَحُوا للسَّلمِ فاجْنَحْ لها وتوكل على الله » حتى ولو كان جنوح الأعداء الى المسالمة أول الأمر خداعاً ، فما ذلك بضائر جيوش الاسلام ! فان بين جنوبهم من العزم ، والتوكل ، ما يكفل النصر ، وينكّل بالمخادعين قال تعالى :

« وإن يُريدُوا أن يَخْدَعُوكَ فَإنَّ حَسْبَكَ ٱلله . هو الذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِه . وبالمؤمنين وأَلّفَ بَينَ قلوبهم » .

منشورات الأمان والسلام

بعد هذا كله نقول : اي سلم قد صحب دعوةً او شريعة ، او ديناً ، كما صحب السلام شريعة الاسلام ، وأيَّة حروب كانت اشبه بالتأديب منها بالتعذيب كحروب المسلمين ؟ لقد كان القائد الاسلامي ، يخرج في جيشه ، وفي يده عدة الدفاع ، ومنشور السلام ! كان دستوره محرَّراً بلغة بارّة سمْحة رقيقة . فقد بعث صلى الله عليه وسلم (عليا) في غزوة باليمن وقال له : «سِر حتى تنزل بساحتِهم ، فادعُهُمْ الى قول (لا إله إلاّ الله) فإن قالوا نعم . فمُرهم بالصلاة ، ولا تبغِ منهم غيرَ ذلك ، ولأن يَهدِيَ بك الله رجلاً واحداً خير لك مما طَلعَتْ عليه الشمسُ . ولا تقاتِلهُم حتى يُقاتِلوك» .

وبعث عليه السلام مُعاذَ بنَ جبل وأبا موسى الاشعريّ على الكورتين العليا والسفلى ، من (عدَن) ووصّاهما فقال : يَسِّرا ولا تُعسِّرا ، وبشِّرا ولا تنفِّرا ، ثم نهى عليه السلام عن قتل العُسفاء .[1]

---

١ – العسفاء المستخدمون جمع عسيف ، وهو الأجير الذي يستخدم .

وهكذا نرى ان أنباء الحروب الإسلامية تفيض ، بما كان للمسلمين من عون للمرضى ، وتطبيب للأعداء وأنفة وإباء ، ان يقتلوا الأعزل من السلاح ، او يمثّلوا بقتيل .

كان عليه الصلاة والسلام كلما بعث جيشاً او سريّةً . قال : «باسم الله ، وفي سبيل الله ، تقاتلون من كفر بالله لا تغلّوا[1] ولا تغدروا ولا تمثّلوا ،ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً» .

ولقد كان جند الأعاجم من الفرس والروم ، اذا وطئوا أرضاً افسدوها ، واذا ظفروا بعدوّ مثلوا به ، كانوا يحملون رؤوس البشر ، في صورة بشعة ، الى سدة ملوكهم بشائر للنصر ، واذاعةً للفخر ! . فرأى بعض امراء المسلمين ، في حرب الروم ، ان يعاملوهم بمثل تلك المعاملة ، فبعث (عمرو بن العاص) و (شرحبيل بن حسنة) برأس (بَنان) أحد بطارقة الشام الى (أبي بكر) مع (عقبة بن عامر) فلما قدم على خليفة المسلمين انكر عليه فعله ! فقال (عقبةُ): انهم يا خليفةرسول الله ، يصنعون ذلك بنا .قال: أفتستنُّونَ[2] بالفرس والروم؟ لا يُحملُ إليّ رأس بعد اليوم ، انما يكفي الكتاب والخبر .. هكذا أخرجه البيهقي .

تعاليم ابو بكر في الحروب

وابو بكر رضي الله عنه، هو الذي أذاع (القانون الدولي) للحروب كما سنّنها من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقد قال عليه السلام ،وهو يشيّع جيش أسامة : لا تخونوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ؛ولا تقطعوا شجرةً مثمرة ، ولاتذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا بعيراً ، الا للأكل.وسوف تمرُّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .

---

١ – لا تغلوا ـ لا تخونوا .

٢ – تستنون : تقتدون .

وقد كان التراحم ، وحقن الدماء ، والرغبة في السلام – كان ذلك كله – يُسيطر على اعمال المسلمين ، وعلى سياسة حكامهم ، فلقد حدث ان نقض الروم عهداً في زمن معاوية وكان لدى معاوية رهائن من الروم ، فامتنع المسلمون جميعاً عن قتلهم . وخلّوا سبيلهم ، وقال معاوية : «وفاءٌ بغدر ، خير من غدر بغدر !» .

واستمعوا ، كيف عَهِد « علي بن أبي طالب » الى أمير من أمرائه فقال :

« اياك والدماء وسفكَها ، بغير حلّها ، فإنه ليس شيء أدعى لنقمة ، ولا أحرى بزوال نعمة ، وانقطاع مدة ، من سفك الدماء بغير حقها ، والله سبحانه وتعالى ، مبتدىء بالحكم بين عباده ، فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة ، فلا تقوينّ سلطانك ، بسفك دم حرام ، فإن ذلك مما يضعفه ، ويوهنه ، بل يزيله وينقله ، ولا عذر لك عند الله ولا عندي ...! » .

* * *

امير الشعراء يصور الحروب الاسلامية

هكذا كان حماة الدعوة الاسلامية لا يشبون حرباً وهم يقصدون ابادة الأعداء ولا يذلون شعوباً ليؤججوا البغضاء ، ولا يحملون دعوتهم في بحار من الدماء ، وانما كان الاسلام يصلح بالحروب فساد المفسدين ، ثم يسعهم بعدُ بسماحة الدين ، ويرحم الله شاعر العربية (شوقي) وهو يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرد عدوان المعتدين على مبادىء الاسلام ، وعلى تاريخ الاسلام اذ يقول :

قالوا غزوْت ورُسْلُ الله ما بُعثوا ... لقتلِ نفسٍ ولا جاءوا لسفك دمِ
جهلٌ وتضليل أحلامٍ وسفسطةٌ ! ... فتحْتَ بالسيف ، بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفواً كلُّ ذي حَسَبٍ ... تكفّل السيفُ بالجُهّال والعَمَمِ
والشرُّ إن تَلْقه بالخير ، ضقت به ... ذَرْعاً ، وإن تلْقه بالشر ينْحسم !

عيد الهجرة المحمدية

عظات من الماضي للحاضر

اننا إذ نتحدث عن الهجرة النبوية ، ونمجّد ذكراها ، ونحفل بها انما نقدس في أثناء ذلك عظمة الثبات على المبدأ – نقدّس الإباء والمجالدة والمرابطة في سبيله – نشيد بفوز الحق الذي كتب له الخلود على الدنيا – الحق الصابر على المحن والخطوب – القويّ على عسف الجبروت – الحقّ الممثل في محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم : « إذْ أخرَجهُ الذينَ كَفَرُوا ثاني اثنينِ إذ هُما في الغار. إذ يَقولُ لِصاحِبهِ لا تحزَن إنّ الله مَعنَا. فأنزل الله سَكينته عليه ، وأيَّدَهُ بجنود لم تروَها وجَعل كلمةَ الذين كفروا السُّفلى وكلمةُ الله هي العُليا والله عزيزٌ حَكيم » .

المعركة بين الهدى والضلال

منذ أربعة عشَرَ قرناً ، كانت المعركة بين الحق والباطل حامية الوطيس ، متشعبة الميادين ، وكان أجهر الأحداث التاريخية صوتاً ، واروعها أثراً ، يهيىء للانسانية الخلاص من دنس الاعتقاد ، واسلام النفس لله الواحد القهار ...

لم يكد دعاة الباطل من المشركين يشهدون تسلل المسلمين فراراً بدينهم الى (الحبشة)، ويشهدون وثوب الدعوة الاسلامية على شدّة ما عوّقوها، ثم يرون بعد ذلك اعتزاز الفكرة باسلام (حمزة) عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، (وعمر بن الخطاب) القويّ البأس، العظيم الخُلق، ما كادوا يرون ذلك، حتى كرَبهُم الأمر، فمشوا الى (أبي طالب) الذي كان يحمي محمداً عليه السلام، ويجيره، مشوا اليه يطلبون ان يُسلِم لهم ابن أخيه وأن يأخذ مكانه (عُمارة بن الوليد) أعزّ فتى فيهم! هنا، كبر الأمر على أبي طالب وحَمِيَ أنفه الهاشميّ وأبى أن يُسلِم ابن أخيه في عزة وكبرياء، ثم جمع بني هاشم، وبني المطلب، ودخل بهم (الشِّعْبَ)، فتحالفت قريش على مقاطعة هؤلاء، وكتبوا صحيفة تلك القطيعة، وعلقوها في الكعبة مبالغةً في رعاية نصوصها الآثمة، وتنفيذ ما فيها من عقوق وكفران...

* * *

مكث بنو هاشم وبنو المطلب ثلاث سنين في عزلتهم. لا يصل اليهم شيء الا سرا، ولا يخرجون إلا من موسم الى موسم! وقد بعث ابو طالب خوالج نفسه، وصوّر موقفه من ابن اخيه ومن اعدائه تصويراً فخماً، في قصيدة من القصائد الخوالد، هي افحل من المعلقات! كما قال (ابن كثير) فلما أرسلها ابو طالب في قريش أيأستهم ان ينالوا من محمدٍ عليه السلام منالاً... وهذا عمه، وتلك همامة نفسه!

قصيدة ابي طالب الخالدة

كشفت هذه القصيدة عن رأي أبي طالب في محمدٍ عليه السلام وأبدعت في تصوير سيرته، وخيّبت آمال قريش في أن يظفروا بمحمد، وأعلنتهم بحرب وصراع دون تسليمه، ثم تصدّت لتسفيه ما أقدمت عليه قريش من قطيعة بني هاشم، وخُتمت بالحدَب والشفق والبر يُسبغه ابو طالب على ابن اخيه محمد

صلى الله عليه وسلم :

استمعوا اليها يرسلها ابو طالب فيقول :

خليليَّ ما أُذني لأول عـــاذِلٍ ... بِصَغواءَ في حق ولا عند باطل
ولمـا رأيتُ القوم لا وُدَّ عندهم ... وقد قطعوا كلَّ العُرى[1] والوسائل[2]
وقد صارحونا بالعـــداوة والأذى ... وقد طـاوعوا أمرَ العـدوِّ المزايل
صَـبَرْتُ لهم نفسي بسمراءَ سمحةٍ ... وأبيضَ عضبٍ من تُراث المقـاول
أعوذ بربِّ الناس من كل طاعن ... علينا بسوء أو مُلِـحّ بباطل

واستمعوا اذ يسفّه أبو طالب آراءَ قريش فيقول :

كذَبْتُمْ وبيت الله نبزي[3] محمداً ... ولمـا نطاعن دونه ونناضل
ونسلمـه حتى نُصرَّعَ حوله ... ونذهـل عن أبنائنـا والحلائل

وبعد هذا يشيع أبو طالب محامدَ محمد عليه السلام ويقرر سيادته في قومه فيقول :

وما تركُ قـــوم لا أبالك سيداً ؟؟ ... يحوط الذِّمار غير ذرب[4] مواكل!!
وأبيض يستسقى الغمام بوجهـــه ... ثمالُ اليتامى ، عصمـــة للأرامل
يلوذ به الهُلاَّكُ[5] من آل هاشم ... فهم عنـــده في رحمـة وفواضل
حليمٌ ، رشيدٌ ، عادل ، غيرُ طائش ... يوالي الـآلاَ ليس عنـــه بغافل
لقد عَلموا أن ابننـا لا مكذبٌ ... لديـْنا ، ولا يعنى بقول الأباطـــل
فأيَّده ربُّ العبـــاد بنصـــره ... وأظهر دينـــاً حقه غير ناصل[6]

* * *

١ ، ٢ – الوشائج والروابط والصلات .
٣ – نسلم (محمداً) الى أعدائه .
٤ – مكثار ثرثار .
٥ – الفقراء .
٦ – ليس متغيراً بل هو ثابت .

رأي ابي طالب في صدق محمد عليه السلام

واستمعوا: كيف تكون صراحة العربي، الذي اكتملت له الرجولة واجتمعت عنده الشهامة !

إن أبا طالب يقرر في جهر وعلن، أن محمداً صادق لديه، وأنه لولا أن يتسامع الناس بترك أبي طالب لدين آبائه ، لكان أول مستجيب له ، استمعوا له وهو يقسم :

فوالله لولا أن أجيء بسُبة ... تُجرُّ على أشياخنا في القبائل
لكنا اتبعناه على كل حالةٍ ... من الدهر ، جداً غير قول التهازل

ثم يأخذ أبا طالب الشَّفقُ والحدَب ، فيرسل أبياتاً كلها تعطُّف وحب وولاءٌ ، ودعاءٌ لمحمد عليه السلام ، انه يقول :

لعمري لقد كُلفتُ وجداً (بأحمد) ... وإخوته ، دأب المحب المواصل !
فلا زال في الدنيا جَمالاً لأهلها ... وزيناً لمن ولاه ذبَّ[1] المشاكل
حَدِبتُ بنفسي دونه ، وحميته ... ودافعت عنه بالذرى والكلاكل

* * *

أثر القصيدة في إرهاب المشركين

كان لهذا الشعر القوي أثر بعيد في قريش ، وفي المشركين ، فرهبوا شأن محمد عليه السلام ، وأكبروا حماية أبي طالب له . فلما مات أبو طالب عاودت قريشاً أحلامها ، فراحوا يقلبون الرأي في استئناف الإيذاء وتدبير الخلاص ...

ضيقوا السبل على من آمن بمحمد عليه السلام ، وأوسعوا المسلمين عَنَتاً وإرهاقاً ، ففكر صلى الله عليه وسلم : كيف يؤدي رسالة ربه ؟؟ وكيف يجد السبيل الى قلوب لم يفسدها هذا العناد الطاغي ؟؟ فرأى أن يَرُوض نفوساً

---

١ - قطع .

أخرى لعلها تكون اصلح للخير ، وأقرب للهدى ، وأعونَ على النجح ، ولعله واجدٌ فيها أنصاراً على قومه ، وأعواناً على دعوته ...

كان يتحين المواسم ، ويتتبَّع الحجيج ، ويدعو القبائل ويرجو مَنعَتها حتى يبلِّغ أمر الله ، (وابو لهب) من ورائه يؤلِّب الناس ، ويقول: لا تطيعوه !. فإنه صابىء كذب !! فيردُّون رسول الله رداً غير جميل ...

* * *

الاوس والخزرج

لكن الأقدار الإلـٰهية كانت تهيىء للأحداث العظيمة ، وكان خطب المشركين وشرهم قد تفاقم ، فحضر فريق للحج من قبيلتي الأوس والخزرج ، وكانتا تسكنان (المدينة) ، وتجاوران هناك اليهود ، ويستمعون منهم بأن سيكون « نبي » في هذا الزمان ، فاذا ما ظهر تبعه اليهود ، وقاتلوا « الأوس والخزرج » وأفنوهم فناء « عادٍ وإرم » فلما جاء بعض الأوس والخزرج وشاهدوا الأمر الذي جدَّ بمكة والناس يتحدثون فيه ، وان محمداً يدعو الى دين جديد ، قال بعضهم لبعض : « تعلمون والله ياقوم ان هذا الذي توعدكم به يهود المدينة !! فلا يَسْبِقنَّكم اليه ».

* * *

وخطر لرؤساء الأوس ان يحالفوا قريشاً على الخزرج ، وكانت العداوة بين الفريقين لا تخمد ، فلما جاء فريق منهم الى مكة لهذا الغرض ، لقيهم صلى الله عليه وسلم وقال :

« هل لكم في خير مما جئتم له ؟ ان تؤمنوا بالله وحده ، ولا تشركوا به أحداً » . ثم تلا عليهم آيات من القرآن ، فرقت النفوس ، وجاءت الهداية وقال (أياس بن معاذ) وكان شاباً حدثاً باراً : « هذا والله خير مما جئنا له » .

بيعة العقبة

هنا بدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بوادر الخير في هؤلاء. فما زال يتتبعهم بإرشاده ، ويعالج توجيههم الى الخير ، ولقي عند (العقبة) ستة من قبيلة الخزرج بينهم ابو امامة (اسعد بن زُرَارة) فدعاهم الى الإسلام ، والى معاونته في تبليغ رسالة ربه ، فآمنوا به وصدقوه وقالوا :

إنّا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم ! فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعز منك . ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل .

أخذ الأمر يسهل بعد عُسر ، ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم منافذ الخير تتفتح ، وحضر اثنا عشر رجلاً واجتمع بهم عليه السلام ، فبايعوه عند (العقبة) على انهم لا يشركون بالله شيئاً ، ولا يسرقون ، ولا يزنون ، ولا يقتلون أولادهم ، ولا يأتون ببهتان يفترونه بين ايديهم ، وأرجلهم ، ولا يعصون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في معروف ، فمن وَفى فله الجنة ، ومن غشِيَ من ذلك شيئاً ، فأمره الى الله عز وجل إن شاء غفر ، وإن شاء عذّب ...

* * *

حماسة الانصار للمخالفة واخلاصهم للدعوة

في حماية تلك البيعة ، ذهب الى المدينة رُسُل محمد عليه السلام يُعلمون ويفقّهون ويدعون بقية الأوس والخزرج الى الاسلام، فتكاثر العديد ، وذاع الاسلام، فلما كان الموسم التالي ، جاء خلق كثيرون من الأوس والخزرج وكأنما كان مكان (العقبة) الذي يتواعد عنده الأخيار الأبرار ، مؤذناً دائماً بانفراج العقبات ! وحل الأزمات ! فقد تسلل الى العقبة بعد هَزيع من الليل ، ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان ، قال كعب بن مالك وكان احد هؤلاء :

«اجتمعنا في الشِّعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى جاءنا

ومعه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، الا أنه احبَّ أن يحضر امر ابن أخيه ، ويتوثق له . فلما جلس كان العباس أولَ متكلم . فقال: «يا معشر الخزرج، (وكانت العرب تسمى الحيَّ من الأنصار – الخزرج : أوْسَها وخَزْرجَها) إن محمداً منا حيث قد علمتم ،وقد منعناه من قومنا – ممن هو على مثل رأينا فيه– فهو في عز من قومه، ومَنعَة في بلده ، وانه قد أبى الا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه ،ومانِعوه ممن خالفه فأنتم وما علمتم من ذلك ،وإن كنتم ترون أنكم مسْلِموه وخاذلوه بعد الخروج اليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه ، وبلده » .

قال كعب : قد سمعنا ما قلت يا عباس. فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحبَبْت. فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ، ودعا الى الله، ورغَّب في الاسلام . ثم قال : « أبايعكم على ان تمنعوني مما تمنعون منه انفسكم ، ونساءكم ، وأبناءكم، وأموالكم » .

فأخذ «البرّاءُ » بيده، ثم قال : نعم، والذي بعثك بالحق لنمنعنَّك . فنحن والله ابناء الحروب ورثناها كابراً عن كابر !...

* * *

بتلك البيعة القوية ظهرت حماسة الأنصار ، وتجلى اخلاصهم للدعوة ، فلما أمرهم صلى الله عليه وسلم ان ينصرفوا في حذر من قريش . قال له سعد بن عبادة : والذي بعثك بالحق ان شئت لنمِيلنّ على أهل مِنى غداً بأسيافنا .

فقال صلى الله عليه وسلم : « لم نؤمر بذلك . ولكن انصرفوا الى رحالكم » .

نفر الناس من منى ، وعادَ الأنصار الى المدينة ، وذاع الاسلام هناك ، وكبَر الأمر على المشركين . فلم يبق أمامهم الا أن يتآمروا على قتل رسول الله

صلى الله عليه وسلم ـ وهذا الرأي عندهم فصل الخطاب ...

* * *

حيرة المشركين في أمرهم

اجتمعوا في الليلة الحالكة ، لإنفاذ الفكرة الغادرة ، وترصدوا له بسيوفهم الآثمة . فياالله ! ما أجرَم القوم ، وما أهولَ الساعة ..!.

لقد كان قلب الدهر خافقاً ، وعينُ الزمان ساهرة : ولو تم للمشركين ما أرادوه تلك الليلة ، لارتاع التاريخ ! واسودتْ الدنيا ! واغبرّ وجه الزمان !. لكنّ الله غالبٌ على أمْره ، وأين مكْر القوم من وقاية الله ؟!

« وإذ يمكُرُ بكَ الذين كفروا ليُثْبِتُوكَ أوْ يقْتُلوكَ أوْ يُخْرِجوكَ ويمكرُ اللهُ ، واللهُ خَيْرُ الماكِرين » .

* * *

نزول الصاحبين في غار ثور

عَلِمَ ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما بيَّته المشركون ، فخرج ومعه صاحبه أبو بكر الصديق ، الى غار في الجبل بأسفل مكة ، فدخلاه ، وبقيا به ثلاث ليال « وقريش » يقيمها الأمرُ .. ويقعدُها . وقد أسقط في يدها فجعلت مائة ناقة ، لمن يظفر بمحمد وصاحبه . وكانت الفتاة الصغيرة بكر (أسماء) بنت أبي بكر ، تروحُ عليهما كلّ مساء في خفاء ، تقطع في جوف الليل الطريق الوعر المضني ، تحمل إليهما الزاد والماء ، وبلغ من شجاعة الفتاة ، وقوة نفسها وحرصها على كتمان الأمر ، أن يقابلها الرجل الأحمق أبو جهل فيسألها : ما شأن ابيها ؟ واين هو ؟ فتتجاهل الأمر !! فيلطمها الأثيم على وجهها لطمة يطير لها قُرطها

من أذنها ! ومع هذا لا تبوح بمكنون سرها !.

في الصحارى والقفار

ولمّا سكن الطلب عن الصاحبين ، وهما في الغار ، جاءهما الدليل فسارا في وهج القيظ وتلظي الهجير ، سارا يطويان الظلام ويصِلان الصبح بالمساء ، فهل درت قريش ، وهل درت الصحاري والقفار ، والنجد والسهل ، والليلُ والنهار مَنْ ذا الذي يجوب المهالك ؟ ويقتحم الاخطار ؟ انه أمل الدنيا !! انه رحمة الله للعالمين !! انه محمد بن عبدالله – رسول الله ومجتباه ، فهو مكلوء بعين لا تنام ، وهو في كنف لا يرام ، وإنها – لعمرك – لجرأةُ الإيمان ، وشجاعةُ الاستيقان !.

يـــثرب

كانت (يثرب) يخفق فؤادها كل لحظة شوقاً وارتقابا للسيد الكريم صلى الله عليه وسلم فما هو ان حلّت ركابه ، وبزغت انواره ، فـــإذا يثرب في عيد بهيج ، وإذا بها تنشد الأهازيج :

طلع البدرُ علينـــا * من ثَنِيَّـــاتِ الوَداع
وجب الشكرُ علينـا * مـــا دعـــا لِلهِ داع
ايها المبعوث فينـــا * جئت بالأمر المطـــاع

* * *

الهجرة عيد الانسانية

حقاً ان عيد الهجرة لعيدٌ فريد ، وعهد للانسانية جديد ، فمن هناك انبعث الخير يملأ اقطار الدنيا ، ويحمل للعالم شريعة كلها أمن وسلام ، وحرية وفضيلة ،

كلها هدى ونور ، وشفاء لما في الصدور ، فلتمتلىء قلوبُ المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها فرحاً بذكرى الهجرة .

* * *

(قلْ بفضل الله وبِرَحْمَتِهِ فبذلك فليفْرَحُوا هو خيرٌ مِمَّا يجْمَعُون) .

النشاط الإسلامي ينهض بالمجتمع

اخلاق اسلامية

القرآن باعث النهوض

هذا حديثنا، حديث موصول بأخلاق الرجل المسلم. وبما كان للخلق الاسلامي من آثار امتدت وترامت، حتى صبغت دنيا ذلك العهد صبغة اسلامية باهرة. ولقد انبعثت تلك الاخلاق، وأمامها الحق والقرآن وشريعة سمحة، فمكّن ذلك للمسلمين في الارض، وجعلهم ائمة، وجعلهم الوارثين.

اتعظ المسلم بما فعل الخمود والترف في اهلاك مَنْ كان قبله كالرومان الذين لم يبدأ فناؤهم الا يومَ أخلدوا الى البطالة، واللهو والعبث، وحسِبوا أن حياة العمل والكد والنشاط لا تجمل الا بالعبيد!

فأكثروا من اقتناء العبيد. وعهدوا اليهم بأعمالهم. وقَنِعوا بالسيادة العاطلة الواهنة المسترخية. فما هو الا أن فسدت رجولتهم. وامّحت نخوتهم ودالت دولتهم..!

ميادين النشاط الاسلامي

لقد كثرت ميادين النشاط للمسلم. وتنوعت مظاهرها. فكان نشاطه الجسمي لا يفتر ولا يهدأ. وكان نشاطه العقلي لا يخمد ولا يسأم: فإما رأيتهُ رأيت حركة سرمدية، ودأباً موصولا.

استَمع الى كتابه الأعلى ، الى قوله تعالى :

« فامْشُوا في مَناكِبِها وكُلُوا مِنْ رِزْقِه » ثم أصغِ إلى قوله الأقدس :

« فإذَا قُضِيت الصلاة فانتشروا في الأرض ، وابتغوا مِن فضْلِ الله »

فانطلق المسلم ولم يدعْ سهلاً ، ولا جبلاً ، ولا وادياً ، ولا عامراً ، ولا غامراً ، الا وقد تحصن بإسلاميته ، ثم اقتحمه واستعمره ، وأجرى الخير في جنباته ، وأطلع السعادة في آفاقه !

لم يضيّق المشرّع من حدود النشاط الاسلامي . ولم يصغّر من معانيه بل وسّعها ، وكبّرها ، وترك لها الحدود الفسيحة . فلقد رُوي : ان صاحب الشريعة سيدنا محمد عليه السلام كان جالساً مع اصحابه يوماً . فنظروا الى شاب ذي جَلَد وقوة ، وقد بكر ليسعى . فقالوا : ويحَ هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقولوا هذا . فإنه إن كان خرج يسعى على وُلده صغارا ، فهو في سبيل الله . وان كان خرج يسعى على ابوين شيخين كبيرين ، فهو في سبيل الله . وان كان خرج على نفسه يُعِفُّها ، فهو في سبيل الله . وان كان خرج يسعى رياء ومفاخرة ، فهو في سبيل الشيطان » رواه الطبراني ...

الرسول يكره البطالة والاستجداء

ولقد نظر «صلى الله عليه وسلم» وهو الحكيم الرباني ، الى ما يفعل الكسل في الأمم ، يوم يُسئمها العمل ، وتعييها مذاهب النشاط ؛ فمثّل لنا صورة العهود التي تطحن الأمم طحناً وتبيد الشعوب إبادة وان الصورة التي رسمها لنا الحديث الشريف لأصدق ما تكون الصور ، وأنطق ما تكون الشواهد . فقال عليه السلام : «أخشى ما خشيت على أمتي كِبَرُ البطن . ومداومة النوم والكسل» رواه الدار قطني عن جابر رضي الله عنه .

فلينظر المسلم كيف تنتفخ البطون ، وتتقلص الهمم ، ويطول الرقاد وتمتد الراحة . كل ذلك يكون إذ يُعوز الناسَ النشاط . فيقع ما كان عليه السلام يخشاه ...

ولقد شاء صاحب الشريعة عليه السلام ان ينتزع معنى الاستكانة والركون الى سؤال الناس ما في أيديهم. فكان عليه السلام يرسل كلماته الحكيمة ، ويوجه نصحه المهذب ، من غير تأنيب ، ولا تعنيف .

قال أبو سعيد الخدْريّ : أقبلت لأسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدته يقول : « من يَتصبَّر يُصبِّره الله ومن يستعفِف يُعفّه الله . ومن يستغنِ يُغنِه الله » . قلت : فما أنا بسائِلك اليوم ...

وروى اسماعيل بن محمد ، بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه عن جده . رضي الله عنهم ، أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم . فقال :يا رسول الله ، أوصني وأوجز ، فقال : «عليك باليأسِ مما في أيدي الناس . فإنه الغنى . واياك والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وصَلِّ صلاتك وانت مودِّع . واياك وما يُعتذر منه . . . »

لقد كان المسلم يرى نفسه أكرمَ عليه من ان تَذلّ لمتكرم ، او تسترق لمستعبِد مهما علت سماحته ، وعظمت مروءته . واستمعوا الى حديث ابي ذر الغِفَاريّ – وهو المقل الزاهد – يأبى عطيةَ (عثمان بن عفان) على عظيم شأنه ، وجلال نفسه . روى الامام ابو الحسن يحيى بن نجاح ، في كتاب سُبُل الخيرات : « أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أرسل الى أبي ذر الغفاري – رضي الله عنه – بصُرّة ، فيها نفقة على يدِ عبدٍ له . وقال له : ان قبلها فأنت حُر ! فأتاه بها ، فلم يقبلها ، فقال : اقبَلها – يرحمك الله – فإن فيها عتقي !! فقال « ابو ذر » : ان كان فيها عتقك ففيها رِقّي ، وأبى ان يقبلها !. »

* * *

فانظروا الى هذا الإباء الاسلامي ، والى تلك النفس الحرة الأنِفَة ، تعلموا

اين كنا ، والى اين صرنا .

* * *

حقيقة التوكل

ألا إن شر الأدواء ما التبس امره على الطبيب ، حتى يَهلِك المريض . فلقد سمعنا فاشيةً فشتْ عن الأمم الاسلامية ، بأن النشاط والعمل ، واستنباط وسائل العزة ، واقتحام المخاطر ، كلُّ ذلك ينافي التوكل على الله ، والرضا بقدره وقضائه ! وهذا ضرب من التلبيس وخلط الحق بالباطل ، يوشك ان يستأصل الهمة ، والنخوة والشجاعة ويجعل الذِّلة والمسكنة سائغة هانئة ، مطلوبة !.

فما كان العمل وابتغاء الرزق ، والتقلب في البلاد ومجالدة الأيام ، والأخذ بالأسباب - ما كان ذلك منافياً للتوكل على الله ، والركون الى قضائه ، والثقة به ، ولقد شاء صاحب الشريعة محمد عليه السلام ان يجمع تلك المعاني ، ثم يبرزها في عبارة جليَّة صريحة ، لعلها فصل الخطاب في هذا الباب .

جاءه اعرابي الى المسجد ، وناقته من خلفه يقودها . فسأل النبيَ عليه السلام : أأعقل ناقتي ، ام أدعها وأتوكل ؟ قال له عليه السلام : « اعقلها وتوكل » . فهل بعد هذا يقال بأن صدق التوكل ينافي الاستمساك بالأسباب ، ومكافحة الأحداث ، والمزاحمة ، والمسابقة ، والمنافسة ، وانتزاع المجد وصيانة الحق ؟ ! .

ولقد أخرج الحاكم ، وابن ابي الدنيا ، عن معاوية بن قُرَّة قال : « لقي عمرُ بن الخطاب ناساً من اهل اليمن فقال : من انتم ؟! فقالوا : متوكلون !. قال : كذبتم ! ما انتم متوكلون ! انما المتوكل الذي ألقى حبَّةً في الأرض ، وتوكل على الله ... » .

* * *

المسلم لا يقتل الزمن بل ينتفع به

ولقد نظر الاسلام إلى الزمن نظرة فاحصة ، والزمن ماض لا يقر ، متجدد لا يقف . وهو سجلُّ الأعمال ، وعنده انباء العظماء ، وفيه تخليدٌ لحسنات المحسنين ، ولأعمال العاملين . فأقسم الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه بالزمن وقال : « والعَصْرِ إنَّ الإنسان لفي خُسر الاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات » أليس في هذا القسم ما يُشعر بجلال المقسَم به وعظم شأنه ، ووجوب الحرص عليه ، والانتفاع به والعمل فيه ؟ وان الخسران المبين شاملٌ للعاطلين المتبطلين ، لاصقٌ بالعالة الساكنين – خسرانَ أنفسهم وخسران أممهم . واما الذين يعملون ، ويدأبون ويُصلحون ولا يَفْتُرون . فأولئك هم عناوين فخار ، ومصابيح رشاد : أولئك هم حماة الأمم ، ودعاة النهوض ؛ اولئك هم المسلمون حقاً . لهم درجاتٌ عند ربهم . ومغفرة ورزق كريم .

وليس اشد وعيداً على الفراغ والتواكل من قوله عليه الصلاة والسلام : أشدُّ الناسِ عذاباً يوم القيامة المَكْفيُّ الفارغ !!! » والمكفيُّ الذي يكفيه غيره ضرورات الحياة ، والفارغ المتعطل المخلد الى البطالة والكسل .

* * *

علي بن أبي طالب يعمل بيده لقوت يومه

واستمعوا ما يفعل النشاط الاسلامي بالامام الأعظم ، والسيد الكريم علي بن أبي طالب اذ عضّه الجوع يوماً ، فلم يستكن ، ولم يذل وانما تماسك ، وراح يطلب القوت من اسبابه ! ، قال كرَّم الله وجهه : « جُعت يوماً فخرجتُ اطلب العمل في عوالي المدينة ، فأذا انا بامرأة قد جمعت مَدَراً – تراباً متلبداً – تريد بلّه بالماء ، فبادلتها كلَّ ذنوب [1] على تمرة !! فملأتُ ستة عشر ذنوباً حتى

---

١ – الذنوب – الدلو العظيمة من الماء .

مجلت [1] يدي – ثم جئتُ المرأة فبسطتُ كفي لترى المرأة اثر العمل ، فعدتْ لي ست عشرة تمرة ، فأتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرتـــه فأكل معي منها ... »

تلك قصة صغيرة تـُرينا كيف تأبى النفوس الاسلامية اشد الإباء ، وكيف ترى في العمل – اي العمل – فضيلةً وكرامة ، وصيانةً لماء الوجوه ان يبذل . وأنه مهما يكن في طلب القوت من عنت ومشقة ، ومهما يكن من آلام وصعاب تعترض العاملين ، فذلك خير من استجداء الناس ، ركوناً الى الراحة ونفوراً من النشاط ...

***

الاعمال والعبارات

ويروي البخاري ومسلم حديثاً : هو قانون النشاط الاسلامي ، الذي بعث العزة والأنفة في كل نفس اسلامية . يقول عليـــه الصلاة والسلام: لأنْ يأخذ احدكم حبلاً فيذهب ، فيأتي بحزمة حطب على ظهره . فيكفَّ بها وجهه ، خيرٌ له من ان يسأل الناس – أعطوْه أو منعوه ! » .

اذا قصرَت الهمم ، واستلان الناس حياة الدعة ، ذهبوا يعللون هذا الفراغ المميتَ بأعاليل واباطيل – راحوا يقولون اننـــا نتفرغ للعبادة ونـُخْلِص نفوسنا للـّه ، فليستمعوا ما يقوله صاحب الرسالة عليه السلام في شأنهم ، ومن على شاكلتهم ...

جلس عليه السلام يوماً فجعل اصحابه يثنون على رجل، فقالوا « ان – فلانا – يصوم النهار ويقوم الليل !! ويكثر الذكر . فقـــال : أيكم يكفيه طعامه وشرابه ؟؟ فقالوا : كلنا يا رسول الله . فقال : كلكم خير منه .. »

---

١ – مجلت : ظهر بها الاحمرار من العمل .

سمع الصحابة ذلك ، فاندفعوا يعملون وينشطون ، حتى قرن الله التجار منهم بالمجاهدين في سبيل الله . قال تعالى :

« وآخرونَ يضْربُونَ في الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله » .

فهل هناك شرف للعاملين في الحياة وراء هذا الشرف ؟؟!

* * *

ابو بكر الصديق يضرب في الارض

كان (ابو بكر) الصديق مثالاً للنشاط الاسلامي . فلم يقعده مكانه من رسول الله عن ان يضرب في الأرض وينمّي تجارته . لأنه يرى في ذلك تنمية لموارد المجتمع الذي يعيش فيه . وقد بلغ ماله اربعين الف دينار . فكان يعتق من ذلك المال المستضعفين . وكان يَعُول منها فقراء المسلمين .

ولقد حفزه النشاط الإسلامي لأن يخرج في تجارة الى (بُصرى) ، وهو الحريص على صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمرافق الدائم له .

أخرج ابن عساكر عن ام سلمة قالت : لقد خرج (ابو بكر) على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تاجراً الى (بُصرى) ! .

فانظروا ابا بكر !! وكيف كان يرى هذا النشاط التجاري الاسلامي مُحبباً الى محمد عليه السلام ، الذي لا يرضى لأصحابه التعطّل والمقام الى جواره . .

ما كان ابو بكر يرى حياة الدّعة والتواكل . وما كان يرضى لنفسه ان يعيش من فضل سواه ، حتى بعد ان وَلى أمر المسلمين وصار خليفتهم !

انه اندفع على عادته ، الى السوق للمتاجرة ، والعمل ، حتى صدّه المسلمون

عن ذلك ، ورأوا ان مِثلَه في مكانته حريٌّ بأن يُفرغ نفسه لشئون امته .

قال ابن سعد : – لما استُخلِف أبو بكر اصبح غادياً الى السوق ، وعلى رأسه اثواب يتجر بها ، فلقيه عمر بن الخطاب وابو عبيدة بن الجراح فقالا : كيف تصنع هذا ؟ وقد وَلِيتَ امر المسلمين ؟ قال : فمن أين اطعم عيالي ؟ قالا : نفرض لك . ففرضوا له كل يوم شطر شاة ...

أرأيت كيف ان الخلافة في جلالة شأنها ، لم تصرف «أبا بكر» عن الحقيقة وهي انه رجل مسلم !! ومن واجب الرجل المسلم الا يترفع عن العمل والا يميت في نفسه روح النشاط !!.

* * *

سرى روح النشاط الاسلامي في كل ناحية . وتناول جميع الاعمال فكان العالم المفكر الفيلسوف (ابن حزم) الاندلسي يقول: « اعلموا ان اللذة والسلامة والعز والاجر في اصحاب فلاحة الارض » . وارسل العلماء قضاياهم يتناقلها الناس في هذا المعنى المقتبس من التشريع العملي للصدر الأول ، فقد جاء في كشف الظنون : (لو علم عباد الله رضاء الله في احياء ارضه ، لم يبق في وجه الارض خراب ...) .

* * *

ثراء عبد الرحمن بن عوف من التجارة

علمهم الاسلام الشمم والعزة ، فخالطت قلوبهم ، وجرت مجرى انفاسهم . وانظروا يوم هاجر المسلمون تاركين ثراءهم وديارهم الى المدينة اجابةً لداعي الحق وتعزيزاً لكلمة الله . لقد كان عليه السلام يؤاخي بين كل مهاجر ، وبين كل أنصاريّ ، فلما آخى بين (عبد الرحمن بن عوف) وبين (سعد بن الربيع) قال سعد لعبد الرحمن : « ان مالي شطران لي شطر ولك شطر .. وان لي زوجتين أطلّق احداهن لتتزوج منها .. فقال له عبد الرحمن لا حاجة بي الى مالك. ولا الى اهلك . بارك الله لك فيهما . ولكن دلني على السوق ..».

وتاجر عبد الرحمن فأثرى في الإسلام إثراءً ضخماً حتى لقد قَدم له مرة سبعمائة بعير تحمل البُرَّ ، والدقيق ، والطعام ، فلما دخلت المدينة سمع لأهلها رجة !! فتصدق بها وبما تحمل في سبيل الله ..

* * *

إثراء عثمان بن عفان

ولقد غرس فيهم الإسلام السخاءَ والبذل ، فاطمأنت نفوسهم الى أن ما عند الله خير وأبقى !! انَّ سخاءهم جعلهم يجودون بأرواحهم ، فكيف بأموالهم ؟ .

روى ابنُ عباس : أن الناس قَحِطُوا على عهد « أبي بكر » فقال « أبو بكر » : لا تمسون حتى يفرِّجَ الله عنكم !! فلما كان الغد ، جاء البشير اليه ،فقال قَدمتْ « لعثمان » ألفُ راحلة بُراً وطعاماً !!

قال ، فغدا التجار على « عثمان » فقرعوا عليه الباب فخرج إليهم ،فقال: ما تريدون ؟ قالوا : بعْنا ما عندك ، حتى نوسع به على فقراء المدينة ! .

فقال لهم « عثمان »: ادخلوا – فدخلوا – فاذا ألفُ وِقر ، قد صُبَّ في دار « عثمان » !! فقال لهم ، كم تُربحونني على شرائي من الشام ؟ قالوا : العشرة اثني عشر !!.

قال عثمان : لقد زادوني !! قالوا : العشرة أربعة عشر !!قال : لقد زادوني، قالوا: العشرة خمسةعشر !! قال :لقد زادوني . قالوا : مَنْ زادك ؟ ونحن تجار المدينة ؟ قال : لقد زادني الله لكل درهم عشرة !! .

[من جَاءَ بالحَسَنَةِ فلَهُ عَشْرُ أمثالِهَا] قالوا : لا نقدر على ذلك!! قال :فأشهدكم معشرَ التجار ، أنها صدقة على فقراء المدينة !!.

* * *

الأخلاق الاسلامية أسست الحضارة

لقد نزع الإسلام من تلك النفوس الخيِّرة كل حقد ، وكلَّ مَوجدَة ، فلن ترى رجلاً حَرباً على رجل ، ولا عالماً حاقداً على عالم !! ودونك حديثاً عن امامين عظيمين هما (الشافعي) و (ابن حنبل). هذا الحديث يصور لنا ما بينهما من الولاء ، والحب والتقدير ! وكيف يريان ان فضل الواحد منهما هو على مقدار ما يسدي للناس من نفع ، ومن خير ، ومن سداد !

نزل الشافعي ضيفاً على احمد بن حنبل ، وكانت هناك ابنةٌ لأحمد ، تسمع اخبار الشافعي ، وتتشوق الى رؤية صلاحه ، وعبادته ، فَرقبت عبادته بالليل ، وذكره في الأسحار ! لكنَّ الشافعي أصبح مستلقياً على ظهره حتى الفجر « وابن حنبل » مشغول بذكره وعبادته !! فلما أصبح الصباح ، قالت ابنة احمد لأبيها : « رأيتك تعظم الامام الشافعي ! وما رأيت له في هذه الليلة لا صلاةً ، ولا ذكراً ، ولا ورداً !!» فبينما هما في الحديث ، قام الامام الشافعي ، فقال له احمد بن جنبل : كيف كانت ليلتك ؟ قال : ما رأيت ليلة اطيب منها ! ولا ابرك ولا اربح !! فقال احمد : وكيف ذلك ؟ قال : لأني رتبتُ في هذه الليلة مائة مسألة ، وأنا مستلق على ظهري ، كلها في منافع المسلمين !! ثم ودعه ومضى . فقال أحمد بن حنبل لابنته : « هذا الذي عمله الليلة وهو نائم ، أفضل مما عملته وأنا قائم ! » .

* * *

وكان أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، يقول : — ما صليتُ صلاة منذ اربعين سنة ، الا وانا ادعو للشافعي ! فقال له ابنه : « اي رجل كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء ؟؟ قال الإمام أحمد : يا بني ، كان الشافعي كالشمس للدنيا ، والعافية للناس ، فانظر يا بني هل من هذين خَلَفٌ ؟!.

* * *

لقد استطاعت هذه الأخلاق ان تؤسس حضارة ، وان تكوِّن مجتمعاً ، وان ترفع الراية الإسلامية في الصحارى والقفار ، والبرّ والبحر ، وأن تخاطب الملوك والأمراء ، خطاباً عزيزاً قوياً حازماً ، خطابَ مَن يضع عمره أمام عقيدته يحميها ، ويناضل عنها ! فلا يهدأ ولا يستقر أو تكون له الغَلَبَة والعزة ، ولأمته السلطان الواسع ، والجلالة المتألقة ! .

* * *

خطاب عبادة بن الصامت للمقوقس

واستمعوا : الى (عُبادة بنِ الصَّامت) الأتقى الأبر يحدثنا نشاطه الحربي ؟! كان عبادة بن الصامت ، سفيراً لجيوش المسلمين ، عند (المقوقس) حاكم مصر .

(وعبادة) قد أوتي بسطةً في الجسم ، ولكنه كان حالك السواد . وكان جلالُ الإسلام قد خلع عليه رهبةً وهيبةً ! فكان الناظر اليه يرتعد من صورته .

وكذلك وجل المقوقس يوم شاهده ماثلاً أمامه ، فقال : نحُّوا عني هذا الأسود ، وقدموا غيره ! فقال رفاقه المسلمون : إنه افضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا ، وأكرمنا موضعاً وسابقة ، وعقلاً ورأياً ! فقال له المقوقس : تقدم وكلمني برفق .

فقال عبادة ، وهو يجادل المقوقس في عاصمة إمارته ، ووسط دياره ومنَعَته :

« لقد سمعتُ مقالَتك ، وانَّ فيمن خلَّفتُ من أصحابي ألفَ رجل ، »
« كلُّهم مثلي ، وأشدُّ سواداً مني ، وأفظع منظراً ، ولو رأيتهم لكنت »
« أهَيبَ لهُم مني !! وأنا قد وَليتُ وأدبر شبابي ، واني مع ذلك »
« — بحمد الله — ما أهاب مائةَ رجل من عدوّي ، لو استقبلوني جميعاً ، »

« وكذلك أصحابي .. ذلك بأن رغبتنا وهمّتنا الجهادُ في سبيل الله ، »
« وابتغاء رضوانه ، وليس غزونا عدواً ممن نحارب ، لرغبة في الدنيا ، »
« ولا لحاجة الى الاستزادة منها ولكنّ الله عزّ وجلّ ، قد أحلّ لنا ذلك ، »
« وان كان لأحدنا قناطير الذهب أنفقناها في طاعة الله ... »

فلما سمع المقوقس ذلك ، قال لمن حوله : هل سمعتم مثل هذا الكلام قط ؟ لقد هبْتُ منظره !! وان قوله لأهيبُ عندي من منظره ! ما أحسَب الا أنهم سيملكون الأرض كلّها !.

ثم أقبلَ على عُبادة فقال : أيها الرجل الصالح . قد سمعتُ مقالتك ، وما ذكرتَ عنك ، وعن أصحابك ، ولعمري ما بلغتم ما بلغتم الا بما ذكرتَ ، وما ظهرتم على من ظهرتم ، الا لحبّهم الدنيا، ورغبتهم فيها ! ولكني أخشى عليكم، من توجّه لقتالكم مِن جمع الروم ! فهم لا يُحصَون عدداً ، وهم معروفون بالنجدة والشدة ، وانا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ! ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل دينارين ! ولخليفتكم ألفَ دينار ! فتقبضوها ، قبل أن يغشاكم مالا قوة لكم به !..

فقال عُبادة : وهو يستوحي هواتف اسلاميته الجريئة النشيطة المتحفزة ، قال « للمقوقس » : « يا هذا ، لا تغرّنّ نفسك ، ولا أصحابك !.. أما ما تخوّفنا به من جمع الروم وعددهم ، وكثرتهم ، وأنّا لا نقوى عليهم ، فلعمري ما هذا الذي تخوفنا به ، ولا بالذي يكسِرنا عما نحن فيه ، ان كان ما قلتم حقاً! فذلك والله أرغبُ ما يكون في قتالهم ! وأشد لحرصنا عليهم !! لأن ذلك أعذرُ لنا عند الله ، اذا قَدِمنا عليه ، فان قُتلنا عن آخرنا ، كان أمكن لنا من رضوانه وجنته .

وما من شيء أقرّ لأعيننا ولا أحبّ الينا من ذلك . وانا معكم حينئذ على احدى الحُسْنَيَيْنِ : اما ظفرنا بكم ، فعظُمتْ لنا غنيمة الدنيا . وإما ظفرتم بنا، فعظمت لنا غنيمة الآخرة ! وإنها لأحبُّ الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا .

وان الله عز وجل قال لنا في كتابه :

« كَمْ مِنْ فِئة قلِيلة غَلَبَتْ فئة كثيرة بإذنِ الله ، والله مع الصابرين » .

وما منا رجل الا وهو يدعو ربه صباحاً ومساء : أن يرزقه الشهادة وألا يردّه الى بلده ، ولا الى أرضه ، ولا الى أهله وولده ،وليس لأحد منا همٌ فيما خلّفه . وقد استودع كل واحد منا ربّه أهله وولده ، وانما همُّنا ما أمامنا ..

وأما ظنك أنا في ضيق وشدة من معاشنا ، فنحن في أوسع السعة ! لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثرَ مما نحن فيه . فلا تطمع نفسك في الباطل ! .

* * *

وبهذا الأسلوب الممتلىء حماسةً ونشاطاً ، كان (عُبادة) يخاطب أميرَ البلاد . وهو على بيِّنة من أمره وأمر عقيدته ، لا يرضى بما دون المجد ، ولا يقنع لأمته الا بأن تكون كلمتها هي العليا !.

(ولعُبادة) أمثال وأشباه ، جعل الله قرَّة أعينهم في مطارح النوى ، وفوق أمواج البحار ، فحققوا العزة لقبيلهم ، ونشروا في الدنيا محامدهم ، وأملوا على الأنام ارادتهم ...

* * *

فقيه اسلامي يقود الاساطيل

فهذا عالم جليلٌ ، اسمه (أسدُ بنُ الفرات) ، كان فقيها ، بل كان شيخَ الفتيا ، فلم ترض نفسُه أن تحيا وتموت ، بين المحابر والدفاتر .

رأى أنّ للمجتمع عليه حقاً ، فراح يقود الأساطيل الإسلامية في البحر ،

يغزو (صِقِلية) ، حتى فتحها ، لزيادة الله الأول ، ابن ابراهيم الأغلب ..

وهكذا ، لم يَدَعَ النشاط الاسلامي ميدانا ، ولا فناً ، الا وأحاط بـه علماً ، وجال فيه جولاناً ، برغبة حافزة ، وبلاء صادق .

* * *

ولقد يكون العظيم مِن هؤلاء ، في النزع الأخير ، يودع دنيـاه ، ولكن نشاطه لا ينطفىء ، وعزمه لا يهنُ ، فلا يدع الدنيـا ، الا وقد كتب سورةً للمجد مقروءة على الأيام والسنين !..

* * *

ابو ايوب الانصاري يحارب وهو على فراش المرض

خرج (أبو أيوب الأنصاري) مع (يزيدَ بنِ معاوية) ، في طائفـة لغزو القسطنطينية ، فثقل المرض بأبي أيوب ، فسأله يزيد ، ألك حاجة يا أبا أيوب ؟ قال : – مالي الى دنياكم من حاجة !! ولكن أرجو أن تُوغِلُوا في بلاد الروم ، وأنا محمول معكم ! فلقد سمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يُدفن عندَ سورِ القسطنطينية رجلٌ صالح » واني لأرجو أن أكون ايّاه ، فجعل يزيد يتقدم بسريره ، وهو مُسجَّى ، وحوله القتال يدور فلما رأى (قيصرُ) ذلك ، قال عَجَباً (ليزيد) ! ولأبي يزيد ، يأتون بصاحب رسولهم ، في ديارنا ، حتى اذا ما تركوه ، نبشنا قبره ، وتركناه للكلاب ! فقال يزيد : أما والله لو بلغني ذلك ، لما تركتُ ببلاد الاسلام نصرانياً الا قتلته ، ولا بيعةً ، ولا كنيسةً الا هدمتها ! فبعث اليه قيصر ، لله أنت ولله أبوك ! وحق المسيح .. لأحفظنَّ قبر « أبي أيوب » بنفسي . وبنى على قبره قُبَّة ! ولا زال مشهده بجوار القسطنطينية الى اليوم .. رمزاً للعقيدة ، وما

تحدثه من الأعاجيب !.

* * *

ذلك نبأ عن خلق الرجل المسلم ، الذي أيده الله بنصره وأعزّه بعونه . ولعلّ في ذلك ، بلاغاً لمن كان له قلب ! ولعلّ في الماضي أسوةً حسنةً ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً ..

الإسراء والمعراج

معنى الاسراء والمعراج

حديث الإسراء والمعراج – حديث العجيبة الربانية ، واللطيفة الروحية . فالإسراء : توجُّهه عليه السلام ليلاً من مكة الى بيت المقدس ، ورجُوعُه من ليلته .

والمعراج . صعوده عليه السلام ، الى العالم العلويّ ، وتلقّيه فيض التجلي وشهوده آيات ربه الكبرى !.

وليس يَسَعُ من يؤمن بكتاب الله ، ويصدق بما جاء عن رسول الله ، الا أن يَسْتَيْقِن وقوع هذين الحادثين الإسراء والمعراج؛ فلقد قال تعالى، وهو أصدق القائلين :

« سُبحانَ الذي أَسْرى بِعَبدِهِ ليلاً من المَسجِدِ الحرَامِ إلى المسجد الأقصى ، الذي باركْنا حَوْلهُ لنُرِيَهُ من آياتنا ، إنه هو السَّميعُ البصير » .

وأشار الى حديث المعراج في قوله تعالى :

« والنجم إذا هَوَى ، ما ضلَّ صاحبُكُم وما غَوَى ، وما

يَنطِقُ عن الهوَى . إن هُوَ إلَّا وَحْيٌ يوحَى ، عَلَّمه شديد القُوَى ، ذو مِرَّةٍ فاستوى وهو بالأفقِ الأعْلى ، ثم دَنا فتدلَّى ، فكان قاب قَوْسينِ أو أدنى ، فأَوحَى إلى عَبْدِه ما أوحى ، ما كَذَب الفُؤادُ ما رأَى ، افتمارُونَه على ما يَرى ؟؟ ولقد رآه نزلة أُخرى ، عِند سِدرَة المنتهى ، عِندها جنَّة المأوى ، إذ يَغْشى السِّدرَة ما يَغشى ، ما زاغَ البَصَرُ وما طغى ، لقد رأَى مِن آيات ربِّه الْكُبْرى . »

* * *

رسول الله يتحدى المشركين

تناول الإسراء والمعراج ، علماء المسلمين ، على تباين العصور ، وفي شتى الأبحاث ، فانتهوا الى ان هذا السُّري كان في الليل ، وذلك الصعود في السموات — كان بروحه وجسمه عليه السلام وذلك الذي انتهى اليه العلماء ، هو ما يتَّسقُ مع تحديه عليه السلام للمكابرين الذين وجدوا في خبر الإسراء والمعراج ، فرصةً تظهر أحقادهم وتنبش أضغانهم ، وتبث نمائمهم ، فاشتد جحودهم وانكارهم ، وتعويقهم للدعوة الاسلامية ، وهي اذ ذاك تنشط وتنهض وتذاع ...

وقد سرت أحاديث الإسراء والمعراج ، بين الأمة الاسلامية ، سرياناً مستفيضاً ! ووعتها بطون الكتب ، وتحدث بها الرواة ، حتى نقلها من اعاظم الرجال ، خمسة وأربعون صحابياً ، بطرق شتى ، وأخذها جيل عن جيل ، في تواتر واجماع . فليس ينقص من قدرها ، أن يقوم فريق محدود الأفق ، ضيقُ العَطن ، يزعم الوقوف خلف ما كشفه العلم ! وأن شئتَ فقل الظن من اوصاف للسموات ، وأنباء للمناظير المكبرة ، التي تقرب المريخ والمشتري ، والزهرة ، وعطارد ..

ويَاربَّ موجودات ، لا تزال تستعصي على قوة المناظير ، وتتسامى على عُطارد والمريخ !

« وَخُلق الإنسَانُ ضعيفاً » .

* * *

ليس يضير الحقائق جحود الجاحدين

انه لجميل بنا ، وحسنٌ منا ، ان نرعى نواميس الحيـــاة ، وأن نؤلف َما بينها ، وبين شئوننا . ونقارب ما بينها وبين حياتنا – ولكن من المجازفـــة العقلية ، ان نجحد ما عسى ان يكون في الوجود ، من نواميس أخرى ، لايزال العقل الانساني يعثر منها كل يوم على جديد . وقـــد تَنفَد الأزمان والدهور ، وتخمد الأفكار والعقـول ، والنواميس الكونية تتكشف ولا تنفـد ! وتتجلى ولا تنتهي !.

وعجيب ان يقف الجحود امام سرعة البراق ، الذي قطـع الفيافي ، والقفار من مكة إلى بيت المقدس ، وعاد في فترة قصيرة .. وحجة هذا الجحود العلمية قانون السرعة وناموس الحركة ..

نعم . عجيبٌ أن يستعصي الجحود عن ادراك السرعة « البراقية » ! ولهؤلاء الجاحدين ، حجج وبراهـين على السرعة التي تتحرك بهـا الكواكب السيارة ! فلديهم قـد ثبت أن نجم المشتري ، يجري ثلاثـين الف ميل ، في الساعـة فيجري تسعة اميال ، كلما تنفس الانسان ! والمشتري اكبر من ارضنا بألف وأربعمائة مرة ! .

فيأخذ العلم الجاحد ! أن لنَجم المشتري الـهاً – تبارك وتعالى – هو الذي جعل هذا الجسم الهائل الكثيف ، يقطع الأبعـاد الشاسعة في لحظات ! فكيف يتغابى العلم وقد تمكن من الدوران حول الارض في لحظـــات أن يتصور روح

القدس – ومعه ذو الروح الأكمل – محمد عليه السلام – وهما يَسريان من مكة ، الى بيت المقدس، على مقتضى ناموس لا نعرفه ! وان كان الوجود يشتمل عليه.. ما دام العلم قد اثبت – سرعةً عجيبة – لأجرام كثيفة !

* * *

ما أجرم الجحود – إنه يتنـــاول كل أمر – فيعطل العقول ! ويصدم الغرائز ! الحيِّرة في الانسان ! وهل يضيرُ الحقائقَ ، أن جحدها جاحد لأنـه لم يرها ! أو لأن عقله لا يتسع لإدراكهـــا ؟؟ – الا أيها الجاحـــدون ، لِمَ لا تدركون ! .

« انما بَغْيُكُمْ على أنفسكم » .

* * *

ليس ما كشفه العلم هو كل ما في الوجود من نواميس

وليس فيما كشف الى الآن، من قوانين الجذب العام، ونظام الأفلاك ومَسابح النجوم ، وعناصر الكواكب ، ونواميس الحركة ، وطبقات الهـــواء وتحديد الحركات ، ومعايير السرعة – ليس ذلـــك كله وما يتصل به – ما يقف أمام الإسراء والمعراج – الا اذا كان هـو كلّ ما حواه الكون ، وانتهت اليـــة النواميس !. وليس الأمر كذلك ! .

فإننا نشهد كل يوم كشفاً عن ناموس ! وإبطالاً لناموس ! حتى لقـد صرح بعض جهابذة الفرنجة : – بأنّ أخوف ما نخافه ، أن ما نفاخرَ به اليوم من العلوم ، يُصبح بعد مائة سنة باطلاً منسوخاً ! ويؤثر لرئيس مجمـع ترقي العلوم بجامعة كمبردج سنة ١٨٥٤ : – ان كُنه المادة غير معروف ، وان منتهى علمها مبتدأ جهلها !..

* * *

ألا إنّ حق الكرامة العقلية على الإنسان ، أن يُنهنه من طغيان الجحود ، اذا ما جهل أسرار الوجود ! فإن قدرة الله لا يتعاظمها ناموس ! وسواء أكان الإسراء والمعراج قد جرى أمرهما ، على ناموس من النواميس التي بثّها الله في الكون ، أم جرى على غير ناموس ! فهو أمر في حدود القدرة العَلِيَّة ، الشاملة .. التي وسعت كل شيء ...

« وما قَدَرُوا الله حقَّ قدرِهِ والأرض جميعاً قبْضَتُهُ يوم القيامة ، والسمواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمينه ، سبحانه وتعالى عمَّا يشركون » .

***

نعم لا يجد الجحود لساناً ، الا في حدود المادة ، الكدرة الكثيفة ، فأما لدى العالم الروحي ، وأمام الكائنات اللطيفة ، فأنت تتفقد الجاحدين ، فهل تُحِسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ؟ لا. ان للكائنات الروحية اللطيفة ، سلطاناً بعيد المدى ، على العالم المادّي ، سلطاناً من أمر الله يُعجز القوى ، ويحل العُرى ، ويدهش العقول .

عجائب الكهرباء

ودونكم ما يشهده الحسُّ ، مما تفعله الرياح . وهي أجسام لطيفة فقط .. وليست روحية .. انها تزعزع الأشجار الباسقة ، وتقتلع الأوتاد العاتية ، وتفتّت الصخور الجاثمة ! وهذه قوة الكهرباء ، والكهرباء من اللطافة بحيث تُرى آثارها ، ولا تُرى حقيقتها ! إنها تحوّل خواص الأجسام الى أضدادها .. وتبعث اليوم في الدنيا حياة جديدة .. انها تحمل الأثقال ، وتقلقل الأجبال ، وتُرسل الحركة العنيفة ، وتبعث البارقة الخاطفة ، وتجري أضخم الأجرام ، وترسل الصواعق ، وتنشر الضوء ، وتؤجّج النيران ..

نحن نشهد تلك الآثار لقوّة لطيفة ، هي : الكهرباء ، نراها رأى العين ، ونُجريها مجرى اليقين .. فكيف يَتَعاظمنا ما لسلطان الأجسام الروحية اللطيفة على المادة الكثيفة ؟.

●

القدرة الالهية

أكان للناس عَجَباً ، أن أفيضت الروحية اللطيفة على « محمد » ، وعلى « جبريل » ؟ فصدر عنها من الآثار ، مثل الإسراء ومثل المعراج . ونحن اذا طوينا القرون القهقرى ، فرجعنا الى ما قبل اليوم ، منذ قرنين اثنين ، أفكنّا نحسَبُ موجاتِ الأثير ، تنقل الى أقطار الدنيا ، نبراتِ الخطباء وأرنان الغناء ، وعزف الآلات ؟! ـ والخطيب ـ والمغنّي ـ والعود ـ لا يجاوز مكانه المحدود ، أفكنّا نوقن بوجود ناموس ، يجري بسفائن في الجو ، لا في البحر وان شئت فَقل ، مُدُناً متنقّلة على جناح الرياح ؟ لقد صرنا اليوم ، وصار ما كان أدخلَ في باب المستحيل ، وهو ممكن ! يُرى ، ويُحَسّ وصدق الله العظيم :

« وما أوتيتم من العلم الا قليلاً » .

●

تصوير الفضائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم

لقد شاء الله أن يكرم عبده « محمداً » عليه السلام « بالإسراء والمعراج » ، وان يجعل من الحادثَينِ ، مصداقاً لكل ما يبلغه عن ربه . !

ولقد شاهد في مسيره «عليه السلام» مثلاً ، وصوراً للفضائل الانسانية فأصبح يحكيها حكايةَ الثَّبْتِ المتَيقّن ، وفيها من العظات والعبر ، صنوف وألوان !.

جاء في حديث أبي هريرة ، عن الطبراني ، والبيهقي ، وابن جرير ، وأبي

يعلى ، أنه عليه السلام – مرَّ ليلة أُسري به على قوم ، يزرعون ويحصدون في يوم ، وكلما حَصدوا ، عاد كما كان ! فقال لجبريل : ما هذا ؟ قال : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنة ، سبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ...

ثم أتى على قوم ترضخ – تشدخ – رؤوسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ، ولا يفتَّرُ عنهم من ذلك شيء ، فقال : ما هذا ، يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين لا يؤدون زكاة اموالهم ! « وما ظَلَمَهُم الله ولكن أنفسهم يظلمون » .

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيجٌ في قدر ، ولحم نيىء في قدر ، فجعلوا يأكلون من النيىء الخبيث ! ويدَعون النضيج ! فقال : ما هؤلاء ، يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل من أمتك ، تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتي امرأةً خبيثةً ، فيبيت عندها ، حتى يُصبح !..

والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً ، فتأتي رجلاً خبيثاً ، فتبيت عنده حتى تصبح !.

ثم أتى على رجل ، قد جمع حزمة عظيمة . لا يستطيع حملها ، وهو يزيد عليها ! قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل من أمتك ، تكون عنده أمانات الناس ، لا يقدر على أدائِها ، وهو يريد أن يحمل عليها ! ..

ثم أتى على قوم ، تقرض ألسنتهم ، وشفاههم بمقاريضَ من حديد ، كلما قُرضتْ ، عادت لا يفتَّر عنهم من ذلك شيء ! قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هؤلاء خطباء الفتنة ! الذين يقولونَ مالا يفعلون .

ثم اتى على جحر صغير ، يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد ان يرجع من حيث خرج ، فلا يستطيع ! فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، ثم يندم عليها ، فلا يستطيع ان يردها !

ولقد ذكر في رواية ابي سعيد الخدريّ عن البيهقي ، وابن جرير ، قال :

هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً .

وانه عليه الصلاة والسلام مَرَّ بقوم ، يُقطع من جنوبهم اللحم ، فيطعَمون ! وإنهم الغمازون [1] ! اللمّازون ! .

●

تمثيل المعاني السامية في سراه وفى معراجه

هذا ضربٌ من التمثيل ، وتصوير المعاني ، أتيح لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يراه في تلك الليلة المشهورة ، ليكون أوقعَ في النفوس ، وأبعد أثراً في جمال الفضيلة ، وقبح الرذيلة !.

●

حديث المعراج

أما حديث المعراج ، فقد رواه الشيخان ، اللذان لا يتطرق الشك في صحة ما يرويان ، رواهُ البخاري ، ومسلم ، ونقله القاضي (عياض) في شفائه ، عن أنس بن مالك « رضي الله عنه » قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتيت بالبراق ، وهو دابَّةٌ فوق الحمار ودونَ البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، قال : فركبته حتى أتيت بيت المقدس ، فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء ، ثم دخلتُ المسجد ، فصليت ركعتين ، ثم خرجتُ فأتاني جبريل بإناء من خمر ، وإناء من لبن ، فاخترتُ اللبن ! فقال جبريل : اخترتَ الفطرة !

ثم عرج بنا الى السماء الأولى ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد بعث اليه ؟ قال : قد بُعث اليه . ففتح لنا ، فإذا أنا « بآدم » فرحَّب بي . ودعا لي بخير .

---

١ – الغمازون : المشيرون بأعينهم لعيوب الناس . واللمازون : العيابون .

ثم عرَجَ بنا الى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : « محمد » ، قيل : وقد بعث اليه ؟ قال : قد بعث اليه . ففتح لنا ، فاذا أنا بابني الخالة : يحيى وعيسى بن مريم ، فرحبا بي ، ودعوا لي بخير .

ثم عرج بنا الى السماء الثالثة فذكر مثل الأول ، ففتح لنا فاذا أنا (بيوسف) واذا هو قد أعطي شَطر الحسن ، فرحَّب بي ، ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا الى السماء الرابعة : وذكر مثله ، فاذا أنا (بإدريس) ، فرحب بي ، ودعا لي بخير ، قال تعالى : ورفعناه مكاناً علياً .

ثم عرج بنا الى السماء الخامسة ، فذكر مثله ، فاذا أنا (بهرون) فرحب بي ، ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا الى السماء السادسة ، فذكر مثله ، فاذا أنا (بموسى) فرحب بي ودعا لي بخير .

فرض الصلاة

ثم عرج بنا الى السماء السابعة ، فذكر مثله ، فاذا أنا (بابراهيم) ، مسنداً ظهره الى البيت المعمور ، واذا هو يدخله سبعون الف ملك ، لا يعودون اليه ... ثم ذهب بي . الى (سدرة المنتهى) ، فاذا أوراقها كآذان الفيلَة ! واذا ثمرها كالقلال ! قال : فلَمَّا غشيها من أمر ربي ما غشيها ، ، تغيرت ، فما احدٌ من خلق الله يستطيع ان ينعتها من حسنها ، فأوحى إليّ ما أوحى ، وفرض عليَّ وعلى أمتي خمسين صلاة ، في كل يوم وليلة . فنزلتُ الى (موسى) فقال : ما فَرضَ ربُّكَ على أمتك ؟ قلت : خمسين صلاة . قال : ارجع الى ربك ، فسله التخفيف . فان أمتك لا يطيقون ذلك ، فإني قد بلوتُ بني اسرائيل قبلك ، وخَبَرتهم ... قال فرجعت الى ربي .

قلتُ : يا ربِّ خفِّفْ عن أمتي ، فحطَّ عني خمساً ، فرجعتُ الى موسى ،

فقلت ؟ حَطَّ عني خمساً ، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك ، فارجع إلى ربك، فسله التخفيف . قال : فلم أزل أرجع بين ربِّي – تعالى – وبين (موسى) حتى قال سبحانه :« يا محمد ، انهن خمسُ صلوات ، كلَّ يوم وليلة ، لكل صلاة ثواب عشر !! فتلك خمسون صلاة! ومن هَمَّ بحسنة ، فلم يعْمَلها ، كتبت له حسنة» ، قال : فنزلت حتى انتهيتُ الى« موسى » ، فأخبرته ، فقال : ارجع الى ربك فسله التخفيف ، فقلت:قد رجعتُ الى ربي حتى استحييتُ منه !.. ثم رجع عليه السلام من ليلته .

* * *

أثر الاسراء والمعراج في تاريخ الدعوة الاسلامية

أما بعد ، فإن حادثَي الإسراء والمعراج لهما أبعد الأثر في تاريخ الدعوة المحمدية ، بل هما آية صدق وبرهانُ يقين ، على صحة النبوة والرسالة ! فليس يصح في الأذهان ، والدعوة تلاقي في مكة أعنفَ التسفيه والتكذيب ، ليس يصح أن يقوم محمد عليه السلام في الوقت العصيب ، ويفاجىء خصومه الألداء ، بحديث الإسراء والمعراج – من عند نفسه – لكي يقدِّم لهم المادة يبنون منها تكذيبهم ، والعُدَّة التي يهيئون منها أسلحتهم ، للعصف بدعوته !.

إن محمداً عليه السلام، هو أحصفُ وأحزم من أن يَذكُر في الصباح «حديث الإسراء والمعراج » ، الا وهو مؤيدٌ بالعناية الإلـٰهية ، تنصره في عمله ،مستعينٌ بالوحْي الإلـٰهي ، يضيء له السبيل ، ويكفيه مؤونة الدليل ؛ ويرحم الله ناهج البردة (شوقي) وهو يقول في الإسراء والمعراج :

مشيئة الخالق الباري وصنعتُه وقدرةُ الله فوقَ الشكِّ والتُّهَمِ .

زواج المسلمين وزواج نبيّهم ﷺ

خصوم الاسلام يحرفون مبادئه

يتحدث الكثيرون في زواج المسلمين ، وفي زواج نبيهم صلى الله عليه وسلم ، حديثاً نابياً عن الحق والصدق ، بعيداً عن التحقيق العلميّ ، وعن طبائع الاجتماع ، منقطعاً عن التاريخ الاسلامي الصحيح . وهؤلاء المتحدثون ، وهم كثْر ، لا يعدون أحد رجلين :

أما الأول – فشانىءٌ للإسلام ولمبادئه ، من غلاة المبشرين والمستشرقين ! الذين تستيقن نفوسهم الحقَّ ، ثم يجحدونه بغياً وظلماً .

وثاني الرجلين – تراه في علمه رقيقَ الحال ، وتلمح على رأيه طابَع التقليد . لا يفرّق بين أقوال المخلِّطين ، وبين تحقيق المحققين !.. من أجل هذا ، نسوق الحديث ، ونفصِّل الخطاب :

الروح الاسلامي مسعد للانسانية

لقد جاء الاسلام ، ومعه سعادةُ البشر ، ورحمتهم ، ووقايتهم ، وتنظيم مجتمعاتهم ، فشرع لهم من الدين النظم والقوانين، ولقنهم من الآداب والاخلاق، ما يكفل للإنسانية بقاء سعيداً وحياةً مطمئنة ! لا جموحَ في الرغبات ولا سَرَف في النزعات ! لم يصادم الاسلام غريزة ، ولم يقاوم طبيعةً ! لكنه هذَّب الغرائز ، وقوّم الطبائع ، ليؤلِّف بذلك جماعات تسودها الفضيلةُ ، ويحوطها

القصد والاعتدال . فاذا ما نظرنا الى الزواج الاسلاميّ ، نراه قد ردّ الميول الجامحة ، وكبح من الأثرة الطاغية ، وغالب النفوس ، وقمع الأهواء ، وجعل من العفاف حياطةً للمجتمع !...

العفاف حياطة للمجتمع

ولقد يحدثنا التاريخ ، أن الاسلام قد عُني بشؤون المرأة ، زوجةً ، وأمّاً وعضواً في المجتمع ، لأن كل تفريط ، أو افراط في شؤون المرأة ، مؤذنٌ بانهيار الأمم ، وذهاب ريحها . ويحضرُنا هنا مثل سريع ؛ ذلك أنّ (المعزّ لدين الله) لما فتح ما يلي افريقية حتى المحيط ، أخذ يرنو الى مصر وهو واجم متهيّب ، ثم لم يزل متردّداً في الإقدام على غزو مصر ، حتى قال له قائل : ان قصور الأخشيد قد غرِقت في الترف ! وان النساء هناك قد استَهنّ بالفضيلة ! فما لبث أن قال كلمته المعروفة « اليوم فتحتُ مصر !.. »

الزواج داعية المودة والرحمة

جاءت كلمة الزواج على لسان المشرع الاسلاميّ ، فكانت طبيعية الاشتقاق مؤْذِنةً بأن الأصل الطبيعي ، أن يكون للرجل امرأة واحدة يكون بها ، وتكون به زوجاً .

ثم ما برح الأسلوب التعليميّ القرآنيُّ ، يذكر الزواج ، مقترناً بكرائم الصفات، والمودة والرحمة، والألفة والمساكنة والملابسة ... ثم عظّم الإسلام رباط الزواج تعظيماً ، وسمى عَقْدَهُ ميثاقاً غليظاً ! قال تعالى :

« وأَخذْنَ مِنكُم ميثاقاً غليظاً » .

واستمعوا الى الأسلوب التهذيبيّ في الزواج ، يقول تعالى :

« ومن آياته أن خَلَقَ لكم مِن أنفسِكُم أزواجاً لتَسكُنوا

إليها وَجَعَل بَينَكم مَودَّةً ورحمة » .

فإذا ما أصغى المسلمُ ، الى الأدب الإلـٰهي ، كان حريّاً ألا يسارع في هدم بيته ، وفَصْم عروته ، وإشقاء أسرتـه ، لنزوة حضرت ، أو بادرة بدرت ، أو هوًى عرض . ولنستمع الى قوله تعالى :

« وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهنَّ فعسى أن تكرَهوا شيئاً ، ويجْعَلَ الله فيه خيراً كثيراً » .

أليس هذا تشكيكاً في الوُجدان ، وإطفـاءً لغضب الغضبان لكي يُبقي على زوجه ؟ .

* * *

دعائم الزوجية في رأي عمر ، رضي الله عنه

في ضياء تلك الآيات الكثيرة ، كان أئمة المسلمين يُشرِّعون للناس ما يجنِّبهم عثراتِ التعجل ، في فصم عروة الزواج .

حدَّث الرواة أن عمرَ رضي الله عنه ، قـال لرجل طلق امرأته : لِمَ طلقتها ؟ قال : لا أحبها ! فقال : أكلُّ البيوت بُنيتْ على الحب ؟ أين الرعـاية وأين الذمم ؟!.

الجهل بحكمة تشريع التعدد

اذا كان المشرع الاسلامي ، وأسلوب الوحي السماويّ ، قد جعَلا للزواج كل أولئك المعاني السامية ، فكيف الْتوَى الأمرُ وانقلب ، حتى صار يقال : أوَلَيسَ تعدُّد الزوجات ، وكثرة الفرقـة ، وسهولةُ الطلاق ، مبعثاً لهاتيك الوَيلات ؟..

وقبل أن نعرض لهذا التساؤل وهـذا القول ، يجمل بنا أن نعرض لآيتين

كريمتين ، لنعرف مراميها الصحيحة ، ونفقه حكمتها التشريعية ، وعند ذاك ، نتبين أين هو مصدر الشقاء ؟ وما هو مبعث الشرور ؟ أهو الزواجُ الإسلاميّ الذي أحكمتْ نظمه ، ثم فُصِّلَتْ من لدُن حكيم عليم ؟؟ أم هو الجهلُ بتلك الحِكَم ! وتلقّي الشريعة من غير مناهلها ومنابعها ؟. وهل المسلمون اليوم في تزاوجهم ، قد وقفوا عند حدود شريعتهم ؟ وأدركوا أسرار كتابهم ؟.. يقول تبارك وتعالى :

« فانكحوا ما طابَ لكم من النساء مَثنى وثلاثَ ، ورُباع ، فإن خِفتم ألّا تعدلوا فواحدة ... »

ثم يقول في آية أخرى :

« ولن تستطيعوا أن تعدِلوا بين النساء ولو حرَصتم ، فلا تميلُوا كل الميل !!.. »

اذن – ما ذنب المبادىء الاسلامية ، وقد ضربت حول اباحة التعدُّد نطاقاً مُحكَماً من العدل ؟ ، وجعلته ضرورةً من الضرورات التي يقتضيها اصلاح المجتمع ، وبناء دعائمه ، ورفع الجور والضرر أن يتسرب الى البيوت !!

أليس تعدد الزوجات الذي يجُرُّ الى الشقاء مُحَرماً قطعاً لأنه داع الى الجور ؟.

أليس وضعُ كلمة «العدل» ، والعدل كلمة رهيبة ، هي سرُّ سعادة الأفراد والجماعات؟. أليس ذكر العدل هنا يصور لنا بشاعة الجور ، اذا انعكس الأمر؟ جورٌ يبعثه الرجل المزواج ، ثم يورِّثه بعد ذلك بنيه وحفَدته ، ويُرسله معاولَ في بناء مجتمعه ؟.

أصل السعادة أن يكون للرجل زوجة واحدة

لقد أراد المشرع الإسلاميّ ، أن ينبّه إلى حقيقة لا مِراء فيها ، وهي :

أن الأصل في السعادة الزوجية ، والحياة الكاملة المنزلية أن يكون للرجل زوجة واحدة !.. ولكن .. قد تعرض للأمم وللأفراد ، أحداث توجب استثناءً من هذا الأصل ، فقد تنتاب الأمم حروبٌ تجتاح رجالها ! أو ثوراتٌ وأوبئةٌ تبيد أكثر النوعين تعرضاً لها ، وهم الذكور .. هنا ، تجيء الضرورة ، وهنا محل الاستثناء ، فليسُ التعددُ في ذاته أمراً مباحاً ، وليس إرضاءُ الشهوات الجامحات مقصوداً للشريعة المطهَّرة ، ولكن هي الضرورات الاجتماعية ، التي تعرِّض المجتمع للأخطار . ولقد صدمت تلك الضرورات – أخيراً – الباحثين من علماء الاجتماع ، ورأوا بأعينهم ما يُستهدف له بعض المجتمعات في أوربا ، من أخطار كثرة النساء ، واباحة الاختلاط وتضييق حدود الزواج ! رأوا ذلك رأي العين ، فكتبتْ احدى الكاتبات الاجتماعيات كلمات مؤثرةً ، نشير الى بعضها ، وليرجع اليها من شاء في تاريخ الاستاذ الامام « محمد عبده » المعروف بالمنشآت .

كتاب الفرنجة يشيدون بمبادىء الاسلام

قالت تلك الكاتبة الانجليزية :

« لقد كثرت الشارداتُ من بناتنا ، وعمَّ البلاء ، وقلَّ الباحثون عن »
« أسباب ذلك ! واذ كنتُ امرأةً ، فإني أنظر الى هاتيك البنات ، وقلبي »
« يتقطَّع شفقةً عليهن ، وحزنا لهن ، وماذا عسى يفيدهن حزني وتوجعي ! »
« وان شاركني فيه الناس جميعاً ؟ لا فائدة الا في العمل على ما يمنع هذه »
« الحالة الرجْسة . ولله در العالم الفاضل (توماس) فإنه رأى الداء »
« ووصف الدواء ، وهو : الاباحة للرجل أن يتزوج أكثر من واحدة ! بذلك »
« يزول البلاء وتصبح بناتُنا ربات بيوت ! وأمهات أولاد شرعيِّين !. »
« اننا نعاني تحريم زواج اثنين ، فقد ألقى ببناتنا شواردَ ، وقذَف بهنَّ »
« الى التماس أعمال الرجال ، فكثر الاختلاط ، وتفاقم الشر ». انتهى كلام السيدة الباحثة .

هكذا ، هكذا ، يرجع الباحثون الى تعرّف الحقائق الاجتماعية ، التي لم يغفِلها المشرّع الإسلامي ، من قبل أربعة عشر قرنا ...

* * *

ان زواج المسلمين ، قد أحيط بالمودة والرحمة ، أحيط بما يكفل سعادةً للأسرة ، ونظاماً للبيت ، وقوة للمجتمع ، ومعالجة للأخطار الاجتماعية ، في حدود القصد والاعتدال ...

* * *

الرسول عليه الصلاة والسلام ينصرف عن النساء في ميعة شبابه

أما زواج نبي المسلمين صلى الله عليه وسلم ، فزواجٌ اكتملت عنده الفضيلة كل الفضيلة ، وشاعت فيه الحكمة ، وقُصد فيه الى خير المجتمع ..

لقد صححت رواياتُ السيرة النبوية ، أنه عليه السلام بقي زُهاءَ خمسة وعشرين ربيعاً ، من حياته الشريفة ، لا تمتد عينه الى مأثمة ، ولا يُعرف عنه إلمامٌ بريبة ، ولا شغف بالنساء ، وذلك في عهد الشباب الجامح ، وسنّ الفتوّة النامية — ورسول الله قد اكتملت رجولته ، واشتهرت وسامته !! غير أنه رجل ولا ككل الرجال ! وقد اصطفاه الله وطهره ، وأعدّ منه مادة لتاريخ الانسانية !.

ولقد كان أعداؤه ، يعدون عليه الهِنات ، ويتَتبّعون سيرته في الخلوات والجلوات ، فأتعبهم عليه السلام ، بنقاء سلوكه وعفته ، وقهرهم على أن يَشهدوا بأمانته وصيانته ! ، فليعرف المتحدثون عن أخلاقه ، عليه الصلاة والسلام ، أن تلك النفس المختارة ، لتمثل للناس صورَ الكمال الأعلى ، تلك النفسَ الطيبة الراضية المرضية ، التي شُغِلت بهداية الأمم ، واتصلت بالعالم العلويّ ،

وسبَحتْ في أفق الوحي – ليست هي النفس الممعنة في الرغبات ، الذاهبة مع الميول ! وحاشا لمحمد – عليه السلام – أن يتنكّب في زواجه سواء السبيل .

يتزوج بخديجة وهي شيخة وهو في الخامسة والعشرين

لقد تزوج عليه السلام ، بخديجة ، وهي امرأة ثيب ، في حدود الأربعين ومحمد عليه السلام في الخامسة والعشرين ، في الخامسة والعشرين ، أو الثالثة والعشرين . وعَمَّر هذا الزواج المبارك خمسةً وعشرين عاماً ، يظلله الوئام والحب ، والوفاء والاخلاص لا تمتد عينه عليه السلام ، أن يُبدل بها سواها ، أو يشركَ معها غيرها ، على كثرة ما كان في العرب يومذاك – من تعدد الزوجات ، والسرف في الشهوات – وانّ في ذلك لأشارةً وإشادةً « بالزوجة الواحدة » .

زيجاته بعد وفاة خديجة

فلما ماتت خديجة ، بقي باراً بذكراها ! وفياً لصديقاتها ! ولما تزوّج بعدها – ولا بُدّ له أن يتزوج (بسودةَ بنت زَمْعة) وهي أرملة رجل من المسلمين السابقين ، أسلمتْ مع زوجها ، ولَقِيتْ من عنت الأعداء وقسوتهم ، ما جعلها تهاجر مع زوجها الى البلاد النائية ! الى الحبشة .

وبقيت بجوار زوجها ، حتى مات ! نازحاً غريباً ! مهاجراً في سبيل الله ! فكانت سَوْدَة حريةً بالرعاية والعزاء بعد موت زوجها الكريم .

لم تُعرف سَوْدَة يومئذ بجمال ، ولا بمال ، بحيث يستبق الناس الى زواجها ! ولكنها عُرفت بالخلق والعقيدة والمجالدة ! فرفعها ذلك الى شرف أمومة المؤمنين ! .

ثم تزوج عليه السلام من – عائشة – و – حَفصة – والأولى بنت وزيره ، ونصيره وصديقه ، الذي وضع حياته ، وماله ، وجاهه ، ومناعم حياته في كِفة وصديقه – محمداً – في كفة أخرى ، فرجح محمد على ذلك كله !.

والثانية ، بنتُ عمر الفاروق ، الذي أعز الله به الاسلام . وقد شاءت

الحكمة النبوية ، والوفاء المحمدي ، أن تتوثّق الصلات بين البيوت الثلاثة ، بيت محمدٍ عليه السلام ، وبيتي وزيريه أبي بكر ، وعمر .

ولا يَهرِفنَّ أفّاكٌ بأن الزواج ، كان لغير هذا المعنى السامي ، فلقد تروي السيرُ إلينا ، أنه ـ عليه السلام ـ خطب عائشة ، وأبقاها سنتين ، لا يبنى بها .

أما الرغبة في ـ حفصة ـ فلم تكن لغير حق أبيها عُمَر . واستمعوا ـ لعمر ـ يحدثنا عن ذلك ، قال : «والله لقد كنا في الجاهلية ما نَعُد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقَسَم لَهن ما قسم ! قال : فبينا أنا في امر ، اذ قالت لي امرأتي لو وضعتَ كذا وكذا ! فقلتُ لها ومالك أنت ولما ها هنا ؟ . وما تكلّفك أمراً لا أريده ؟ فقالت : عجباً لك يا بن الخطاب ، ما تريد أن تُراجعَ أنت ؟ وإن ابنتك لتراجعُ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يَظلَّ يومه غضبان ! قال عمر : فَدخلتُ على حفصة ، فقلت لها : يابنيَّة ، إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يظلَّ يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : وإن أنا راجعته ؟ فقلتُ : إني أحذِّر عقوبة الله ! وغضبَ رسوله يا بنيّة ـ والله ، لقد علمتُ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحبك ـ ولولا أنا ـ لطلقك ! » .

* * *

الحكمة في تعدد زوجاته

ولعلَّ تلك القصة ترينا أن الحياة الزوجية النبوية لم يكن يسمو اليها غير أشرفِ المقاصد ، وأطهر المرامي ! وكذلك كان لكل زوجة من أمهات المؤمنين ، سببٌ صحيح يعلو بها الى البيت النبوي العظيم .. الى أمومة المؤمنين !.

* * *

هناك حقيقة تاريخية معروفة في ترتيب نزول الآيات ، فقد كان للمسلمين جميعاً ، أو لنبيهم – أن يتزوجوا كما شاءوا ، لأن العهد عهدُ بناء – لا عهد معالجة للعادات الزوجية ، المتأصلة في النفوس ! فلما كانت السنةُ الثانية من الهجرة ، وقد اكتمل شأن الدين ، وقويت أركان المجتمع الإسلاميّ ، ونما عديده – عند ذاك – تحدد عددُ الزوجات ، ونزلت آياته فكان تشريعاً للمستقبل ...

اذنْ – فرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان كباقي المسلمين ، لم يخصّ نفسه بما حرّمه على غيره ، ، كما أذاع تلك الفرْية المفترون . بل الآيات قد أحاطت زوجاته وزواجه وما حُلِّلَ له ، وما حُرم عليه – أحاطت كل ذلك بقيود لعلّها أضيق مما أتيح لكل مسلم !...

* * *

نساء النبي يبلغن الاحكام من بعده

وليس نظامُ الزواج عند المسلمين ، الا نظام البناء للأسرة ، والصلاحَ للمجتمع ، وليس زواجُ النبي صلى الله عليه وسلم ، الا زواجَ الحكمة العالية .. والمقاصد السامية !

* * *

ثم انّ رسول الله صلى الله عليه وسلم انسانٌ كالأناسيّ ! يحبُّ أن يُعقب ، وأن ينسل ! وقد فقد الذكران من أولاده ! اولا ! أفلا يخطر له حب النسل كأي انسان ؟.

ثم هو مأمور بتبليغ الرسالة الى الجنسين كافة ، من اناث ، وذكور ؟ فكيف تنتقل الشريعة الى نصف الأمة من الاناث ، الا على لسان زوجاته ، أمهات المؤمنين ؟.

وسنذكر بعدُ ، الحِكم في زوجاته الباقيات وصدق الله العظيم :

« وَقُلْ جاءَ الحقُّ وَزَهَقَ البأطـــلُ انَّ الباطـلَ كانَ زهوقاً » .

عودٌ إلى زواج النبي ﷺ

التاريخ الصحيح لكل زيجة

نعود الآن الى الحديث في زواج سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وتعرّف التاريخ الصحيح لكل زوجية عقدها والبحث وراء الحكمة التي بعثت على تكرار زواجه ، فلقد صار من الحقائق الخالدة أن كل ما عرض له عليه السلام ، من شئون الحياة العامة والخاصة ، ليس الا صادراً عن رُشد هو أبلغ الرشد الانساني ، وكمالٍ هو منتهى الكمال البشري ، وحكمةٍ هي الحكمة البالغة التي تنزّل بها الروح الأمين على قلبه ليكون من المرسلين ...

ولقد ذكرنا كيفَ طهُرتْ سيرته في وقدة الشباب وجموح الصبا ! حتى لقد ذلّت أمام طهارته وأمانته خصومةُ أعدائه أجمعين ، ! وسموه طوعاً او كرهاً السيّد الأمين ! وعرفنا كيف بني (بسودة بنت زمعة) التي مات عنها زوجها المسلم المهاجر ! فكان الزواج النبوي جابراً لخاطرها الكسير ، وعرفنا كيف بني (بعائشة) و (بحفصة) بنتي وزيريه السابقين الأولَيْن ! .

ونريد الآن ان نبين كيف تزوج عليه السلام من (زينب) بنت أُميمة بنت عبد المطلب ، فلقد صرّح بالاثم خصوم الاسلام واعداء الحق ، ورفعوا عقائرهم بزواج زينب على وجه التعيين ! وراح خيالهم الخاطىء ، وتصويرهم الهابط ، بل راحت جرأتهم على الحق وعلى التاريخ ، راح كل ذلك يوحي اليهم قصص عشق وغرام ! وإنها - في الحق لمقالات آفكات - بل هي لهو الحديث !.

بل عبث الأهواء تتسامى عنه سيرة محمد عليه السلام النقية الكاملة .

●

قرابة زينب من النبي صلى الله عليه وسلم ونشأتها في بيت النبوة

وليس المقام مقام عرض لسخف تلك الاقاصيص ، بل نحن نقصر القول على سرد التاريخ الصادق ، وسوق الحق الصُّراح ، في زواج النبي صلى الله عليه وسلم زينب ، فلقد جعله عليه السلام للناس شرعةً ومنهاجـــاً ، يعملون به ، ويقتفون أثره ...

كانت زينب كما أسلفنا من ذوي الرحم ، بل هي بنتُ عمته صلى الله عليه وسلم ، نُشِّئت — إذن — في البيت النبويّ ، ودرجت وشبَّت في الرعاية المحمدية. فهي ليست بعيدةً ، ولا غائبة عن عينه صلى الله عليه وسلم ، وهي معروفـــة الصفات ، منكشفة النقائب ، مخلوطة بالبيت المحمديّ ، فلو رغب في زواجها عليه السلام أولَ الأمر لما كان في الامر عجب ولا غرابة ! لكنه مع هذا كله ، خطبها وهي بكر لعبده العتيق (زيد بن حارثة) — وكان محبوباً منه ، متبنى له ، يدعوه الناس : زيد بن محمد . فلما علم عبد الله أخو زينب بتلك الخِطبة ، تعاظمه الأمر ، وعزَّت عليه قرشيته وهاشميته ، وكرِه أن تصبح أخته تحت عبد رقيق أُشتري ثم أُعتق ! مهما يكن من امره ، ولو صار متبنىً لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

رأى عبد الله ان ذلك الأمر عارٌ عليه وعلى أخته ، ورآه خروجـاً على تقاليد البيوت العريقة ، وما زال ينفر وتنفر اخته أن ينزلا بتلك المصاهرة الى مستوى العتقاء ...

لكنَّ محمداً عليه السلام ، جاء ليشرَعَ للناس المساواة ، ثم يطبق الشريعة على أهله أولَ الأمر . جاء ليضرب العصبيَّة والفوارق بين الطبقات ضربات قاضيات ! فما زال يطلب خطبة زينب لزيد ولا تزال زينب ولا يزال اخو زينب

يتأبّيان . حتى نزل الوحي بالأمر الحاسم :

« وما كان لمؤمن ولا لمؤمنة اذا قضى الله ورسولُه أمراً أن يكون لَهُمُ الخِيرَةُ من أمْرِهم ومن يعص الله ورسولَه ، فقد ضلَّ ضلالاً مبينا »

هنا خضعت زينب وأطاعت، ورضي أخوها بما اختاره الله ، وتم هذا الزواج !.. غير ان طبائع الزوجين لم تتحول بعدَ الزواج .. فما زالت زينب تعاودها النَّعْرَةُ النسبيَّة ، وما زالت ترى نفسها قرشية هاشمية ، وما زالت تفاخر زوجها فَتَفْخرُهُ بحريتها الأصيلة . وأتعب الأمر زيداً ، وجرح نفسه ، التي عزّت بعزة الإسلام ، وشكا أمره لرسول الله صلى الله عليه وسلم . واستجار به مستأذناً راغباً في أن يفارق زينب. لكنه عليه السلام، كان يهدىء من نفس « زيد » ويقول له : « أَمسك عليك زوجك واتق الله ..» فصبر زيد حتى اذا ما نَفِد صبره طلق زينب .

* * *

تحرّجه عليه الصلاة والسلام من التزوج بزينب بعد طلاقها

هنا شاءت الحكمة الإلـٰهية ان تقضي على عادة كانت تخضع لها العرب خضوعاً ، وتتخذها شرعة وقانوناً – تلك العادة – هي إلصَاقُ الأدعياء بالبيوت وخلطهم بالأسر .. وإعطاؤهم كلَّ حقوق الأبناء ، فكانوا يَرثونهم ويُوَرّثونهم ويجعلون لهم من الحرمة ما لحرمة النسب .

فأراد المشرّع الإسلامي الحكيم ان يحدّد علاقة التَّبني ، وان يميِّز البنوة الصحيحة من البنوة المدَّعاة ، وان يجعل علاقة المتبنى علاقة اخوة ومساواة في ظلال النظام الإسلامي الجديد ... قال تعالى :

« وَما جَعَل أدْعياءَكم أبناءَكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يَقُولُ

الحقَّ وهو يهدي السبيل » .

بتلك الآيات تحددت الأمور ، ووضحت الأحكام ، فـإذا ما طلّق ابنٌ التبني زوجته، فما على ابيه الذي تبنّاه من حرج اذا هو بني بتلك الزوجة ! لأنها اجنبية منه . حلالٌ له – ذلك هو الحكم الجديد . وهو يعارض العادة الجاهلية ، بنت الأجيال . التي لا تفرق بين الابن النَّسَبيّ وابنِ التبني !! بل تجعلهما في الحكم سواء.. فالمسألة اذن بعد صدور حكم الله تحتاج الى هدم جريء للماضي ولآثار الماضي .. وجوباً لإنفاذ امر الله .. وإعلاناً لحكمه .

ورسول الله قدوةٌ للناس ، وإمام لهم ، فمن شأنه ، ومن واجبه – وقد طلق زيد زوجته ، وزيد عرفه الناس ودعوْه زيد بن محمد – من شأنه عليه السلام ، ان يبيِّن حكم الله للناس بصورة عملية ، وان يتزوج من زينب بعد زواجها الأول . كلُّ هذا متسق ومستقيم . غير انه عليه السلام كان يدبر الأمر في نفسه ، ويعرضه على خاطره، ويقرر ما عسى ان يقول الناس ؟ انهم سيقولون ان محمداً اقترن بمطلقة ابنه زيد وما هكذا تعارف العرب ...

كان هذا التقدير يحول بالخاطر النبويّ الشريف ، فنزل العتاب بقوله تعالى : « وتُخفي في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه..» هذا التردُّد منه عليه السلام لا يمكن أن يَبقى ، ومحالٌ ان يبقى ، فلا بد ان يشرع محمد عليه السلام تشريعاً عملياً ، في شجاعة وحزم.. لهذا وحده تزوج عليه السلام بزينب ، وأبطل بفعله ما كوّنته القرون من العادات ، وما جعلته الجهالات شريعات ...

* * *

فعلُ الرسول تشريع لأمته

يقول تعالى :

« فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوَّجناكها، لكي لا يكونَ على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيـــائهم اذا قضوْا منهنَّ وَطراً ، وكان أمر الله مفعولا . . »

هكذا تبـين الآية الحكمة في هذا الزواج ، وتحددهـا تحديـداً وتكشف عنها كشفاً !! وتلك قصة زواج النبي صلى الله عليه وسلم زينب وسند القصـة كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقل لمن يضربون في بيداء الخيال الخاطىء من اعداء محمد . يا ايها الناس « **انما بغيكم على انفسكم** » .

* * *

زواجه عليه الصلاة والسلام من أم سلمة

تزوج صلى الله عليه وسلم ايضاً (ام سلمة) هنداً بنت ابي امية – وكانت من قبل ذلك ، زوجة لابن عمها (ابي سلمة) وهو من السابقين الاولين ، اسلم في اول الناس ، ثم أُوذي .. ثم هاجر الى الحبشة فراراً بدينه – وقد صحبته زوجته أم سلمة – فلما كانت الهجرة الكبرى الى المدينة، هاجر – ومعه ام سلمة ايضاً – فهي قد شرفت بالهجرتين ..

بعد ذلك مات عنها أبو سلمة سنة ثلاث من الهجرة ، وقد ترك في كفالتها ابناءها الأيتام الأربعة ..

وكان ابو سلمة ، رجلاً باراً تقياً ، وفياً يعنيه امر أم سلمـة بعده ، ويرجو لها الخير ان مات وتركها . فكان من دعائه لها : اللهم ارزق ام سلمـة بعدي رجلاً خيراً مني ، لا يحزنها ولا يؤذيها . وكان ابو سلمة يحدثها حديثاً سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول لها : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : ما من عبد يصاب بمصيبة فيفزع الى ما امره الله به من قول « انا لله وانا اليه راجعون » ثم يقول : «اللهم أجرني في مصيبتي ، وعوضني خيراً منها ! » إلا آجره الله في مصيبته ! وكان قميناً أن يعوضه الله خيراً منها . قالت أم سلمة : فلما مات أبو سلمة ، ذكرت ذلك الذي حدثني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلته ! ثم قلتُ : أنـّى أُعاض خيراً من أبي سلمة ؟

* * *

تسابق المسلمين الى زواجها رحمة بأطفالها

تلك هي – أم سلمة : امرأة مؤمنـــة ، سابقة مهاجرة ، وهي أم يتامى ! وهي حزينة بمصابها حزناً جعلها تشك أن في الناس مَن يشابه أبا سلمة ، أو تجتمع فيه خلال الخير كما اجتمعت في أبي سلمة . وأبو سلمـة ، له على المسلمين حقوق ، ولأبنائه على المجتمع حقوق . فمن يكفـل هؤلاء ؟ ومن يرعى ذكر أبي سلمة ؟ لا مراء أن كل هذه الأسباب قد اجتمعت فجعلت كبار المسلمين يعرضون لزواج أم سلمة : زَواجَ وفاء وبر ليس غير .

تقدم اليها أبو بكر ، فأبت . وخطبها عمر ، فردته .

وعرض لها رسول الله صلى الله عليـه وسلم فخطبها ، وبينها وبينه حجاب ، فقالت : أي رسول الله . وما تريد اليّ ؟ ما اقول هذا الا رغبةً لك عن نفسي . . اني امرأة قد ادبر مني سني . . وأني أم أيتام . . واني لشديدة الغيرة . فقال لها عليه السلام : أمـّا ما ذكرت من سنّ ، فما زلت أكبر منك . . وأما ما ذكرت من الأيتام ، فعلى الله وعلى رسوله . . فرضيت ، وتزوجهـا صلى الله عليه وسلم ، كفالةً لهؤلاء الأيتـــام . وتنفيساً عن تلك المرأة فيما فُجعت به من المصيبـــة الكبرى .

* * *

حزم أم سلمة وعقلها

تحضرنا هنا مكرمة من مكارم أم سلمة ، تدل على رجاحة العقل ، وقوة الرأي .

لمّا خرجت عائشة – في الجيش الذي يقاتل علياً – ويأخذ بثأر عثمان ، عظم على فريق كبير من المسلمين أن تتعرض زوجاتُه صلى الله عليه وسلم من بعده لتلك الفتن العمياء الصمّاء .. وكان من هذا الفريق المحايد أمُّ سلمة ، فكتبت الى عائشة : يا عائشة .. ما كنتِ قائلة لرسول الله لو لقيك ببعض هذه الفلوات ؟ ناصبةً قَعوداً ، راكبة جملاً ، من منهل الى منهَل . وغداً تَردين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هاتكةً حجاباً ضربه عليك ؟ فأجابتها عائشة : من عائشة ام المؤمنين الى أم سلمة : سلام عليك . فإني أحمد الله إليك الذي لا اله الا هو . . أما بعدُ . فما اقبلني لوعظك ، وأعرفني لحق نصيحتك . وأن أمضِ ، فإلى ما لا غنى بي عن الازدياد منه .. والسلام ...

* * *

هذا حوارٌ حري بأن نُروي فيه ، وأن نشيد بنساء النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد اجتمع عند هذا الحوار حزمٌ ومضاءٌ .. ونصاعة رأي ، وقوة بيان .

* * *

زواجه عليه الصلاة والسلام من صفية بنت حُيي

ونعود الى زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقول :

انه تزوج ايضاً (صفية بنت حيي) بن اخطب سيد بني النضر .. وكانت صفية تنزع بنسبها الى هرون اخي موسى .. وكانت قبل زواجها برسول الله زوجة لكنانة بن الربيع ، فقتل عنها يوم خيبر ...

وقعة خيبر

وقد كانت واقعة خيبر مبدّدةً لقوة بني النضر ، قاضية على آمالهم ، فلما

تم الغزو، جيء لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالغنائم والسبايا. وبينها صفية فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم يزل ابوكِ من أشد الناس عداوة لي ، حتى قتله الله . فقالت : يا رسول الله، إن الله يقول في كتابه : « ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْر أخرى » . فعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم من حسن جوابها .. ونور بصيرتها .. وتكشّفت له نقائب الخير التي انطوت عليها نفسها . وأشعر قلبه الشريف الحَدَب والعطف على منكوبة أسرة كريمة المحتد فقال لها : اختاري؛ فان اخترت الاسلام أمسكتك زوجة لي ، وأن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك .. فقالت : يا رسول الله . لقد هويت الإسلام ، وصدّقت بك . قبل أن تدعوني، ومالي في اليهودية أرب . ومالي فيها والدٌ ولا أخ .. وخيّرتني بين الكفر والإسلام . فالله ورسوله أحب اليّ من العتق . وأن أرجعَ الى قومي ..

كان هذا الحوار قويَّ الدلالة على صدق فراسته صلى الله عليه وسلم في صفية من عقل سليم ، وفطرة نقية. وان الأمر يحز في نفسها حزاً . وأنها تعتز بشرف الاتصال بالبيت النبوي . فلم يلبث – عليه السلام – ان قال للحاضرين : قوموا . فان صفية أمُّكم .. وكان هذا مؤذناً بالزواج الأطهر . الذي أذهب الأحقاد وداوى الجراح .. وكانت فيه الحكمة كل الحكمة .. ولقد بادر كل صحابيّ الى عتق أرقائه من اقارب صفية ، اذ كيف يُسترق اصهار الرسول ؟

زواج كله اليمن والخير والبركة

تلك أطراف من زواج سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانها لمفاخرُ منشّرة على الأجيال . فيها الطُّهر ، وفيها الخيرُ وفيها الإصلاح ، وفيها رعاية الألفة للمجتمع .

* * *

فلتبقَ سيرتُك : رسول الله ، تعطر الأرجاء . – والله يعصمك من الناس – .

وما هذه الأراجيف إلا حبائل الشياطين ، وان في الأنس لشياطين .. وصدق الله العظيم :

« مَن كان يَظُنُّ أن لَنْ ينصُرَه الله في الدنيا والآخرة ، فَلْيَمْدُدْ بسبب إلى السماء ... ثم ليَقطَعْ ... فلينظرْ ... هل يذهبن كَيدُه ما يغيظ ؟ » .

احسن القصص

سيدنا ابراهيم الخليل

أثر القرآن في الاصلاح الاجتماعي

أنزل الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم قرآنا عربيـــاً ، يهدي الى الرشد ...

واذا كانت نظريات الفلسفة ، وقواعد الأخـــلاق ، وتجارب العلوم ، من طويل الأزمان والآباد ، لم تستطعْ كلها أن تُنشىء جيلاً من الناس ، ولا فئةً من الجماعة ، تقوم على اصلاح الانسانية ، اصلاحاً عادلاً طاهراً ، نقياً عفيفـاً ، فقد استطاع القرآن أن ينهض ـ وحده ـ بتلك المعجزة الاجتماعية الكبرى ...

* * *

قصص القرآن كلها عبر ورشد وصلاح

ومن الوسائل التي عُنيَ بها القرآن، في هذا الانقلاب الاجتماعيّ العظيم سَوقُ القَصص في قصار السُّور وطوالها ، وصوغُها في أسلوب علويّ متميزّ ، يشيع فيه نور الهداية ، ويشعُّ منه ضياء العبرة ...

ليس القَصَصُ في القرآن الكريم قصصاً للتفكه ، ولا بياناً للمادة التاريخية التي عمادها الأرقام والأشخاص ، والأمكنة ، مما لا روحَ فيه ، ولا عبرة ، ولا

عظة ، ولا رشد ، ولا صلاح ...

ان القرآن لأسمى وأقدسُ من أن يحاول انسيٌّ أو جنيّ ، أن يجعل له شبيهاً في كتب التاريخ ، أو مصطلحات الفنون فيجيء بأسفار الملل والعهود القديمة ، ويستخرج من أحداثها وقضاياها ما يوافق ، وما يخالف قصص الكتاب المجيد! ان مقارنة ما في القرآن بما تزعمه كتب التاريخ ، إنه لنزق وطيش وإبعاد عن الرشد ...

وما تاريخ الأقدمين من قبل القرآن ، الا فتراتٌ مُشتَبهة الأعلام حالكة الظلام ! لكن القَصص القرآنيّ ، في هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مسوقٌ للعظة والاعتبار لا للسمر والسمّار ، ومسوقٌ للحكمة والانتفاع ، لا لتحديد المواقع والبقـــاع ! وصدق الله العظيم :

« لَقَدْ كان في قَصَصِهِمْ عبرةٌ لأولى الألباب » .

* * *

القصة القرآنية تبين سنن الوجود

لقد سيقت القصة في القرآن ، لبيان سنن الله ، ولتوضيح قواعد الاجتماع :

« قد خَلَتْ من قَبْلكمْ سُننٌ ، فسِيروا في الأرضِ ، فانظروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ المكَذبين !.. »

لقد جرى سَنن الكتاب الكريم ، ان يكتفيَ من القصة بموضوع العـــبرة ومحلِّ العظة ، ولا يعنيه أن يطنب في أجزائها ، ولا أن يُسرف في أحداثها ، ولا أن يلوِّن مفرداتها ، فربَّما كان في ذلك صرفٌ للفكر عن المغزى وإقصاءٌ للذهن عن الحكمة ...

من أجل هذا ، أُحكمت القصةُ القرآنية ، على غير ما يعرفه المؤرخون ،

وعلى غير ما يستحليه القُصّاص ! ويأنسُ اليه الحكاة ...

القصة القرآنية استبطانٌ للرشد ، وإبرازٌ للعبرة ، واستثارة للحكمة ..

وبعدُ ، فسنأتي على بعض قِصَص القرآن ، في فترات من تلك الدراسات ، وسنُعنى بما عُنيَ به كتاب الله إذْ يسوق القصة .. جاعلين الاهتداء بما يوحي اليه القصصُ الالهي نصب أعيننا ...

وسنبدأ بقصة أبينا (ابراهيم) كما وردت في سور الكتاب الحكيم .. وانها لقصة مليئةٌ بالبطولة والعظمة ، والرُّشد والهدى ـ مليئةٌ باليقين وبالإخلاص للعقيدة ، مليئة بالحوار المنطقي ! في النسق العالي ...

* * *

قصة ابراهيم خليل الله هي اخلاص للعقيدة

ذُكر ابراهيم خليلُ الله في القرآن تسعاً وستين مرة . في ثلاث وستين آية وذلك شرف في سيرته ، وأيُّ شرف ! .

لقد رشّده الله وأوضح له معالم الحق وآتاه الحجة القاطعة اذا ناقش ، والبرهان الساطع اذا حاور !.

رأى ابراهيم قومه يعبدون الأوثان، ويصطنعون بأيديهم آلهتهم، فحاجّهم، وناقشهم ، مناقشةً واضحة ، من غير لجاجة ولا مراء .

ناقشهم بلسان القرآن ، مناقشة الفطرة المستقيمة الخيِّرة ، فقال لهم :

« ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتي أَنْتُمْ لها عاكِفُونَ ؟ »

فلم يجدوا غير أن يتعللوا بأباطيل العلل !

« قالوا وَجَدْنا آباءَنا لها عابِدِينَ »

فلم ير ابراهيم هذا الجواب الا احتقاراً للعقل الانسانيّ، وإطفاءً لنور الفكر، وذهاباً في التقليد الى إفناء الشخصية .. فقال لهم :

« لقد كُنتم أنتم وآباؤُكمْ في ضَلالٍ مُبينٍ . قالوا أَجِئْتنا بالحق أمْ أنتَ من اللاّعِبينَ ؟ قال بل ربُّكم ربُّ السَّموات والأرضِ الذي فَطَرَهُنَّ وأنا على ذلكم من الشاهدين » .

* * *

جدال ابراهيم لقومه – الباطل المدحور

وارتقى « ابراهيم » من هـــذا البيان ، الى برهان عملي ، قام به في جرأة ومَضاء ، لِيبين أنَّ شأنَ الإله ، أن يكون نافعـــاً ضاراً ، فاذا لم يدفع عن نفسه الضُّر والأذى ، فأجدرُ الا يدفعَ عن غيره ذلـك !! والا يستحق عبادة ولا تقديساً !.

وشاء أن يبالغ في تسخيف آرائهم ، وامتهان آلهتهم ، فقام اليها جميعاً وأتى عليها تحطيماً ، حتى صارت قِطعاً قطعاً ، وترك صنماً كبيراً لم يمسه !.

فلما شاهدوا ذلك جمعوا الناس ليحاكموا ابراهيم !

لم يجحد ابراهيم ما فعل ، وانما سَخر منهم ، وهزأ بهم فقال لهم : سلوا هذا الصنم الكبير ! اذا كان ينطق ؟ فهو يحدثكم عمـــا أصابها . فأسقط في ايديهم ، ولزمتهم الحجة ! غير أنهم لجُّوا في عنادهم .

انك لترى ذلك الحوار ، القوي بحجته ، البليغ ببرهانه ، قد ذكره القرآن في سورة الأنبياء ، حكايةً لقول ابراهيم فقال :

«وتالله لأكيدنَّ أصنامَكُم ، بعد أن تُوَلُّوا مُدْبِرينَ فَجَعلهُم جُذاذاً[1] إلّا كبيراً لهُم ، لَعلهم إليه يَرجِعونَ ! قالوا مَن فَعَل هذا بآلِهتِنا إنـــه

---

١ – قطعاً مكسرة .

لَمِنَ الظالمين ؟! قالوا سَمعنافتًى يَذْكُرُهم يُقال لهُ إبراهيم ! قالوا فأْتُوا به على أعْيُنِ الناس لَعلَّهم يَشْهدونَ . قالوا : أأنت فَعلتَ هذا بآلِهتنا يا إبراهيمُ ؟ قال بَلْ فَعلهُ كَبيرُهُم هــذا ، فاسألوهم إن كانوا يَنطِقُون ؟! فرَجَعوا إلى أنفسِهم فقالوا إنَّكم أنتم الظالمون، ثم نُكِسوا على رُءُوسِهم، لقد عَلِمْتَ ما هَؤُلاءِ يَنطِقون » .

قال إبراهيم : «أفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مالا يَنْفَعُكم شيئــاً ولا يضُرُّكم ؟ أُفٍّ لَكم ولما تعبدُون مِن دُون الله أفلا تَعقلون ؟! » .

لم يَرق للجاحدين أن ينزلوا على حكم الحجــة والبرهان ، بعد أن أفحمهم ابراهيم فَعمدوا الى التخلص منه ، وارادوا تحريق جسمه في النيران !!

وكذلك دأبُ الباطل ، في جميع الأزمان . يفرُّ من من ميدان الاقتنــاع عاجزاً مدحوراً ، ثم يعمد الى الكيد والخيانة والعدوان !

لكنَّ العقيدة المكينة قد استولت على مشاعر ابراهيم وانبثَّت في وجدانه ، فلم يبالِ بنيرانهم ، ولا بعذابهم ! .

لقد كانت النار برداً وسلاماً عليه ، وكان مضرِب الأمثال في الثبات والصبر ، والاستبسال ...

« قالوا حَرِّقوهُ وَانصرُوا آلهتَكم إن كنتم فاعِلينَ ؟! قُلنا يا نارُ كُوني برداً وسلاماً على إبراهيم ! » .

قوة الدليل في اسلوب ابراهيم

لم يسكن جهاد ابراهيم في ايضاح الحق ، وتزييف الباطل ، فَعمَد الى ابتكار

أسلوب في الإقناع المُلْزِم، متدرجاً من منزلة الى منزلة ، عسى أن ينفـُذ شعاع من الخير الى العقول الضالة ، والفطـَرِ المريضة .

عمد ابراهيم الى كوكب من الكواكب ، وقـد جنّ عليه الليل ... نظر الى الكواكب ، فقال : هذا ربّي . لكنّ النجم قد تحوّل ، ثم غاب ، والإله لا يصحُّ في العقول ، الا أن يكون دائماً باقياً ، لا يزول ولا يتحول ...

ثم نظر بعد ذلك الى القمر ، وهو اكبر حجماً ، وأسطعُ نوراً ، فقال : هذا ربّي ! لكنه ما لبث ان انحدر ، وأفـَل . وما هكذا يكون الاله ! . وابراهيم يشعر في أغوار نفسه ، بأن الأمر جليل الخطر ، عظيم الأثر وانه إن لم يكن الهدى هدى الله ، فقد باء الإنسان بالضلال والخسران .

فلما رأى الشمس متألقـةً ، ترسل أشعتها ، وتبعث حرارتهـا ، قال : هذا ربي ، هذا أكبر من الكواكب والأقمار ! لكن الشمس قد انحدرت آخر النهار ، واخذت تهبط وراءَ الأفق حتى أفلـَتْ ، ووضح أن كل ما في الكون يتغير ، ويزول ، ويمضي ...

فلا مناص من أن الكل في قبضة إله لا يزول ، يغيّرها ويحركها وهو باق أبدَ الآباد ، ودهر الأدهار ، وأن مظـاهرَ الوجود أدلةُ ربوبيتـه وروائع قدرته .

« وكذلك نري إبراهيمَ مَلَكُوتَ السموات والأرض وليكونَ من الموقِنين . فَلمَّا جَنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً ، قال هذا ربِّي .. فلما أَفَلَ قال لا أُحِب الآفلين . فلما رَأَى القمرَ بازغاً ، قال هذا ربِّي . فلما أَفَل قال لَئن لم يهدني ربي لأكونَنَّ من القوم الضالِّين . . فلمـا رأى الشمسَ بازغةً قال هذا ربي ، هذا أكبرُ ، فلما أَفلت قـال يا قومِ إني

بريءٌ مما تُشركونَ » .

* * *

في حجج ابراهيم لذة عقلية

الحجج والبراهين في نقاش ابراهيم حجج فيها لذة عقلية ، وفيها أسلوب أقوى ما تكون الأساليب ، إقناعاً وبياناً ! فلقد خوّفه قومه من سطوة آلهتهم التي يُسفِّهها ، ويَتهزأ بها ، فصاح فيهم : أأخاف ما لا يسمع ولا يُبصر ، ولا يضرُّ ولا ينفع !؟ ولا تخافون انتم سطوة الله القائم على كل نفس . ! فأيُّنا أحق بأن يخاف ويخشى ..؟ وأيُّنا أحق بأن يطمئن ويأمن ..؟.

وحاجَّه قومُهُ – خاصموه وخوّفوه – قال : «أتحاجُّوني في الله وقد هَدانِ ؟» ثم قال :

« وَكيف أخاف ما أشركتم ؟ ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يُنزِّلْ به عليكم سُلطاناً ، فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ .. »

* * *

صفات الاله الحق

وهكذا لم يدعْ ابراهيمُ قومه ، حتى صارحهم العَداءَ ، وبين لهم خصائص الاله الحقّ ، ولماذا وجبت له العبودية من دون تلك الأوثان المصنوعة ...

يَحكِي القرآن الكريم ذلك في سورة الشعراء فيقول :

« واتْلُ عليهم نَبأَ إبراهيمَ . إذ قالَ لأبيه وَقومه : ما تَعبُدون ؟ قالوا

نعْبدُ أصناماً فنظَلُّ لها عاكِفينَ . قال هل يَسْمعُونكم إذ تَدعونَ ؟ أو يَنفعونكم أو يَضُرُّون ؟ قالوا بل وَجدْنا آباءنا كذلك يفعلونَ . قال أفرَأيتمْ ما كنتم تعبدُون ، أنتم وآباؤُكم الأقدمُونَ — فإنهم عَدُوٌّ لي إلا ربَّ العالمين . الذي خَلَقني فَهُو يَهْدينِ . والذي هو يُطْعِمُني ويَسقِينِ . وإذا مَرِضتُ فهو يَشْفينِ . والذي يُمِيتني ثم يُحيينِ . والذي أَطمعُ أن يَغفِر لي خَطِيئتي يومَ الدِّين » .

نعم ان ابراهيم — على درجات قربه — وفرط اخباته ومراقبته لربه ليزداد شعوراً بأنه محتاجٌ لرعاية الله ، فقيرٌ الى غفرانه ، مضطر الى دعائه فهو يقول ويحكي عنه القرآن :

« ربِّ هَبْ لي حكماً وأَلحقني بالصَّالحينَ . واجْعل لي لسانَ صِدقٍ في الآخرين واجْعلني من وَرَثةِ جَنَّةِ النَّعيم » .

ثم يهفو قلب ابراهيم رحمة وحدَباً على ابيه ، ويرجو أن يهديه الله سواء السبيل ، وان يُبَصرَهُ الرشدَ والهدى .

وكذلك قلوب الهُداة والأطهار ، تأمَلُ أن تمتلىء الدنيا خيراً ، وأن لا يبقى على وجه الأرض شرٌّ ، ولا يبقى جحود — وبخاصة — اذا ملأت القسوة والعَداء ، قلوب الأقرباء ، على الأطهار الأتقياء .. هناك يتحرق القلب الأوَّاب ، ويدعو :

« واغْفر لِأَبي إنه كانَ من الضالِّين ، ولا تُخزِني يوم يبعثون ، يَومَ لا ينْفعُ مالٌ ولا بَنُونَ ، إلَّا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سَليم » .

طمانينة القلب واقتناع العقل

لقد سَن ابراهيم للباحثين والمفكرين في العقائد طريقة لا تدع للشكوك سبيلاً الى إيمانهم ، فلقد يتناول العقلُ القضايا ويُقلب أوجه الإمكان ، ويُقيم الأقيسة ، ثم يقع الإقناع العقلي موضعه من الانسان .

لكنَّ الطمأنينة القلبية شيءٌ آخر لا يزال الانسان يهفو عليها ، ويتشوق اليها ، حتى يُصبح الأمر ممتزجاً بشغاف القلوب ، مستقراً بين طيات الجوانح .. فالحياة بعد الموت أيسرُ من الوجود بعد العدم . يتقبلها العقل ، ويصدقها .. لكن القلب مشغوف بأن يطمئن الى ذلك .

وكذلك فعل ابراهيم وحكى عنه القرآن :

« وإذْ قال إبراهيمُ ربِّ أَرِني كيفَ تُحْيي ٱلْمَوْتى ؟ قال أَوَ لم تُؤْمنْ ؟ قالَ بَلى ولكن لِيطمئنَّ قَلبي . . قال فخُذْ أَرْبَعةً من الطَّير فَصُرْهُن [1] إليك ، ثم اجْعل على كل جَبل مِنهُنَّ جُزءاً ، ثم ادْعُهُنَّ يأتِينكَ سَعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم » .

ولا شك أن أروع المأثورات في قصة « ابراهيم » عليه السلام تلك الطاعة لله سبحانه وتعالى .. طاعةٌ تستنفدُ كلَّ شيء .. تستنفدُ الشفقة الأبوية .. وتستنفد المقاومةَ الطبيعية .. ثم تتغلب على الهواجس وعلى الضعف الإنساني ..

***

محنة شديدة لابراهيم

لقد أُمرَ ابراهيم في منامه ان يذبح ولده ، ابتلاءً من الله لذلك الايمان

---

١ – اذبحهن وضمهن اليك .

الوثيق ، واختباراً لليقين المكين ، وتعريفاً للناس كيف تفعل العقائد في انفس المعتقدين .

لم يتردد ابراهيم في إنفاذ أمر الله ،على هول الأمر ، وقسوته، وعنفه ، وعلى مخالفته للطبائع البشرية .

وقام من نومه ممتثلاً أمرَ ربه، مؤثراً رضاءَ الله على تَصَدُّع كبده ، وسحق عاطفته ...

اخذ ولده ، وسار في عزم ومَضاء ... ولم يرض أن يفاجىء ابنه بذلك الحدَث ، بل أخبره خبره قبيل ان ينفّذه ، فكان الولدُ سرَّ أبيه، وصورة من ايمانه ، فلم يضجَرْ ... ولم ينفِرْ ، ولم يرتعْ ، ولم يرهب ، بل قال لأبيه : كما حكى القرآن « افعَلْ ما تُؤْمرُ ... » .

***

طاعة الأبناء للآباء

يحكي لنا القرآن ، تلك الحادثةَ العظيمة ، فيقول في سورة الصافات :

قال — أي ابراهيم — إِنِّي ذَاهِب إِلى رَبِّي سَيَهدين ، ربِّ هَبْ لي من الصَّالحين ، فَبشَّرناه بغُلام حَليم . فَلما بَلغ معه السَّعي قال يا بني إِني أرى في المنام أني أذْبَحُكَ ، فانظُرْ ماذا ترى ، قال يا أبتِ افعَل ما تُؤمر سَتجِدني إِن شاء الله من الصابرينَ . فلما أسْما وَتَلَّهُ [1] للجبينِ ، وناديناه أن يا إِبراهيم قد صَدَّقت الرؤيا ، إِنَّا كذلك نجزي المحسنينَ ، إِنَّ هذا لهوَ البلاءُ المبين ، وفَدَيناهُ بِذِبْحٍ عظيم ، وتَرَكنا عليه في

---

١ — تله للجبين — صرعه ، والقاه على عنقه وخده .

الآخرين ، سلامٌ على ابراهيم ، كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين » .

* * *

ولم تكمل المأساة التي اختُبر فيها ثبات ابراهيم ولم يتم الذبح الذي امتُحن به في خضوعه وطاعته واسلامه لله وحده لا شريك له ، وذلك رحمةٌ من الله ، ورأفةٌ بعباده .. فكان فداءٌ .. وكانت للغلام نجاة .

* * *

ابراهيم امةً وحده

اقرأوا قصة ابراهيم في كتاب الله وتدبروها واعرفوا مراميها تستسهلوا صعاب الحياة ، وتهنْ عليكم آلام الدنيا .. وتوقنوا بفرج الله عند كل شدة وضيق « فإنّ مَعَ العُسْرِ يُسْرا ، انّ مع العُسْرِ يُسْراً » ثم تؤمنوا « ان رحمة الله قريبٌ مِنَ المحْسِنِينَ » .

اقرأوها ، تعرفوا صبر النبوّات ، وأسرار الطاعات ، وتدركوا المنطق الأعلى ، والحوار الشريف ، وتفهموا أن خلال الخير ، والعظمة التي توزعت في أمة ، قد تجمّعت كلها في ابراهيم ...

* * *

« إن ابراهيم كان أمّةً قانِتاً للهِ حنيفاً »

موسى كليم الله

القرآن الكريم يعنى بعبر التاريخ لا بوقائع التاريخ

نعود الى القصة القرآنية على ما وعدنا من قبل ، ولقد عرفنا أن القصص القرآني لم يقصد الى التفكهة ، ولا الى بيان المادة التاريخية التي عمادها الأرقام ، والأشخاص ، والأمكنة ، مما لا روح فيه ، ولا عبرَة ولا عظة ! وبيّنا أن الأسلوب القصصي في كتاب الله ، لم يعن بالجزئيات ، ولم يسرف في الأوصاف ، خشية أن ينصرف الذهن عن لُباب المغزى .. وأن ينحرف عن مكان العظة ، وعرفنا أيضاً أن من الحقائق التي تعلو فوق الجدل – أن القرآن الكريم انما يُعنى بعبر التاريخ ، لا بوقائع التاريخ . فهو كتاب الحكم والعبر ، لا كتاب الحوادث والسير .

ولقد أُتيح لنا أن نعرض لقصة ابراهيم خليل الله – وهنا نعرض لقصة – موسى كليم الله – على الطريقة التي أسلفنا ، قاصدين الى ما قصد اليه الهدي القرآني .. وعلى الله قصد السبيل !...

* * *

قصة موسى درس قوي لغلبة الاقدار

جاء القرآن الكريم بقصة موسى في أساليب شتى ، وفي سور متكررة وفي آيات متشابهة ، وكلها مبينٌ عن حوار ، هو النسق العالي للحوار .. وهو المنطق السليم للعقل السليم ، يتحدر بالحجج ، ويشرق فيه الدليل ، وتسطع منه شمس الهداية ، وأول ما يأخذنا في قصة موسى تأخذنا العظة الكبرى ، في صنيع الأقدار وغلبة القضاء الالهي ، حتى لتذعن نفوسنا لأمر الله وهي راضية مطمئنة .. فهذا ـ موسى ـ شاء الله أن يصطنعه لنفسه . وصنعه على عينه ليكون نبياً ورسولاً الى فرعون وملأه .. انظروا كيف ظهر موسى وليداً والموت ينتظره من فرعون ! ولكن قضاء الله كان يهيىء له الحياة في بيت فرعون !.. وانظروا كيف ألقي في البحر ، والبحر مطية الهلاك .. فحفظته يد الله ، ورعته عينه . على حين يذبح فرعون كل يوم عشرات الأطفال إذلالاً لبني اسرائيل . واستضعافاً لشأنهم .. وانظروا كيفَ تتدارك رحمة الله الشعوب العانية اذ يعظم فيها طغيان الجبارين .. يقول تعالى :

« إن فرعونَ عَلا في الأرضِ وجعلَ أهلَها شِيعاً يَستضعِفُ طائفةً منهم ، يُذَبِّحُ أبناءهم ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين ، ونُريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونَجعلَهم أئمةً ونَجعلَهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرضِ ونُرِيَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يحذَرُونَ » .

* * *

سخرية الاقدار بفرعون

وانظروا كيف اشتدت سخرية الأقدار بفرعون .. فجعلت نجاة هذا الطفل

الملقى في البحر ، على يد آل فرعون .. وجعلت رضاعه من ثدي أمّه رغبة من امرأة فرعون وتعطفاً على آل فرعون.. وما أروع أن تكتمل القصة الواعظة.. بأن يهيىء فرعون لنفسه ، وفي بيته ، من يكون سبباً في هلاكه وتمزيق ملكه!! كل ذلك يتجلّى في قوله تعالى :

« وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه فإذا خِفْتِ عليه فألقيه في اليمّ ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادّوه إليك وجاعِلوهُ من المرسَلين. فالتقَطه آلُ فرعونَ ليكون لهمْ عدُواً وحَزناً ، ان فرعونَ وهامانَ وجنودَهما كانوا خاطئين ، وقالت امرأةُ فرعونَ قرةُ عينٍ لي ولكَ ، لا تقتلوه ، عسى أن يَنفَعنا أو نتخذَه وَلَداً ، وهم لا يشعرون ، وأصبحَ فؤادُ أمِّ موسى فارغاً إنْ كادَت لتبدي به لولا أن رَبطْنا على قلبها لتكُون من المؤمنين ، وقالت لأُخته قُصّيه[1] فَبصُرت به عن جُنُبٍ وهم لا يشعرون ، وحَرّمنا عَليه المراضِعَ من قبلُ . فقالتْ هل أدُلّكم على أهل بيتٍ يكفلونه لكم وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ ، فَرَدَدْناهُ إلى أُمّه كي تَقَرَّ عَيْنُها ولا تحزَنَ وَلِتَعْلَمَ أنَّ وعد الله حقٌّ ، ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون » .

* * *

موسى يحطم الظلم والظالمين

نشأ موسى وشبّ واكتمل ، وكان قوياً شديدَ البأس ، يمقت الظلم ، وينصر الضعيف ، تدرج في مدارج الكمال ، لينتهي الى الغاية ـ الى النبوة ـ الى محق الظلم والظالمين .

---

١ ـ قصيه : اقتفى أثره .

يهودي ومصري

رأى يوماً رجلا مصرياً يأخذ عبرانياً ليسخره على الطريقة الفرعونية ، فاستغاث العبرانيّ بموسى فلبّاه ، ووكزَ المصريَّ وكزةً قضت عليه ، ولكن موسى لم يلبث أن ندم على ما فعل وضرع الى الله ليتوبَ عليه . فلما كان في اليوم التالي خرج موسى الى المدينة خائفاً ، يتسمع لآثار ما فعله بالأمس ، فاذا بالعبراني نفسِه يقاتل فرعونياً آخر .. ولعلَّ الغوثَ الذي أغاثه بـه بالأمس موسى ، قد جعل منه مشاغباً مستمراً !! وهو مع هذا قد طمع في عون موسى مرة أخرى لأنه اسرائيلي مثله . فشرع موسى يدفع المصري ويؤنب الاسرائيلي ، ويقول له : انك لغوي مبين !. فظن الاسرائيلي أن موسى يريد اليوم به شراً . فأعجله ، وقال :

« أتُريدُ أن تَقتُلَني كما قَتلْتَ نفساً بالامس إن تريدُ الا أن تكون جَبَّاراً في الأَرض وما تريدُ أن تكونَ من المُصْلِحين » .

* * *

تآمر الفرعونيين بموسى — نصيحة فرعوني مؤمن له بالفرار

تسامع الفِرعونيُّون بتلك الأنباء ، وسرت بينهم ، وعلموا أن موسى قد قتل مصرياً ، فأتمروا لقتله ، وبيَّتوا أمرهم للخلاص من موسى . لكنَّ عناية الله كانت قد ندبت من بينهم رجلاً شريفاً ، عرف ما بيّتوه لموسى فجاءه من أقصى المدينة يسعى :

« قال يا مُوسى إن الملأَ يأتمرون بك لِيقتُلوك ، فاْخرُجْ إني لكَ من الناصحينَ فخرج منها خائفاً يترقَّبُ قال ربِّ نجِّني من القوم الظالمين » .

وكان الخير كلّ الخير في هذا الخروج ، فقد وَجد موسى بعد خروجـه من

مصر ، تلقاءَ مدين ، وجد الشيخ الصالح النبيّ شعيباً ، في أرض مدين . فزوّجه ، وآواه ، ولقد رشح موسى لمصاهرته ، ورغّب فيه شعيبا ، وابنة شعيب ، صفتان جليلتان ، هما آية الرجولة ، بل آية البطولة هما القوّة ، والأمانة ! ولهذا قالت ابنة شعيب لأبيها :

« يا أبتِ استأجِرْه ، انَّ خيْرَ مَن أستأجرتَ القَويُّ الأَمين » .

فلما بلغ الكتاب أجله ، وتهيأ موسى للأمر العظيم – للرسالة الى فرعون. لِشَلّ العرش الذي نصبت قوائمه على الجبروت! وامتدت شرفاته فوق هامات المظلومين المنكوبين . المستضعفين المسخرين .. هنالك ، سار موسى بأهله . فلما صار الى جانب الطور قال لأهله :

« امكثوا إني آنَستُ ناراً لَعلّي آتيكُمْ مِنها بقَبَس أو جَذْوَة من النار لعلكم تَصطَلون [1] فلما أتاها نُودِيَ من شاطىءِ الوادي الأيمنِ في البُقعَة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله ربُّ العالمين » .

هناك كان مَهبطُ الوحيِ . هناك كان بدء الرسالة . هنـــاك كان اتصال الأرض بالسماء !.

* * *

شدة وخوف يعقبها أمن وطمأنينة

ما أروعها عظة ، وما أملأها لقلوب المؤمنين سكينةً وثقة وأملاً ورجاء . رجل يخرج هارباً خائفاً ، ويجلس في ظل شجرة جائعاً يقول :

« ربِّ إني لِما أنزَلتَ إليَّ مِن خَير فقير » .

---

١ – تصيبون دفئاً .

لا سند له الا توكلٌ على الله ، وإلا ثقة بالله ! فيكون له في طي تلك الشدائد كلها هذا الخير العميم . وهـذا النصرُ المبين .. لا جرم أن كانت قصـة موسى مِرْوحَة الحزين ، وسلوة المؤمنين !.

* * *

ثم أصغ الى الأدب الإلهي ، والى السفارة الربانية تعرف كيف تكون الحكمة العالية ، وكيف يكون الخطـاب السامي ، وكيف تؤلَّف القلوب النافرة ، وكيف تعالج النفوس المنحرفة . يقول تعـالى وهو يأمر موسى أن يبلـغ رسالته الى فرعون :

« اذْهبْ أنتَ وأخوكَ بآياتي ولا تَنِيـا في ذِكرِى ، اذهبا إلى فرعونَ إنه طغى فقولا له قولاً ليِّنا ، لعلَّه يتذكر أو يخشى ، قالا ربنا إننا نخاف أن يَفرُطَ علينا أو أن يَطغى ، قال ، لا تخافا إنني مَعكُما أسْمَع وأرى ، فأْتياهُ فقولا إنَّا رسولا ربِّك فأرسِل مَعنا بني اسرائيـل ، ولا تعذِّبْهُم قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتَّبع الهدى » .

* * *

حوار الحق مع الباطل

سار موسى برسالة ربه . وهو يعرف أنه سيخاطب بهـا اكبر الجبارين في الأرض ! بيد أنه كان عليه السلام صورةً من صُور الحق ، لا يبالي أن يقذف به في وجه الباطل .. ابتدر فرعونُ يردُّ على موسى . وقال كما يحكي القرآن :

فمَنْ ربُّكُما يا موسى ؟. قال له موسى « ربُّنا الذي أعطى كل شيء خَلَقَه ثم هدى ، قال فما بالُ القرون الأولى . قال عِلْمُها عندَ ربِّي في كتاب

لا يضل بي ولا يَنْسَى ، الذي جَعَل لكم الأرض مَهْداً وسَلَكَ لَكُمْ فيها سُبُلا وأنزلَ مِنَ السَّماء ماء فأخْرَجْنا به أزواجاً من نبات شتى ، كلُوا وارعوْا أنعامكم ، ان في ذلك لآيات لأولى النُّهَى ، منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

* * *

بعد هذا الحوار القويّ القاطع لكل حجة لم يجدْ فرعون غير أن يستخفّ بموسى وبالحق الذي يمثله موسى ، فقال كما يحكي القرآن الكريم : « اني لأظنُّك يا موسى مَسْحورا !. » .

أتُرَى موسى سكت عن تلك الجرأة الوقِحة .؟! لا ! انه لطم فرعون لَطمةً دفع بها تلك الأهانة ، في ثبات الواثق من عقيدته ، المطمئن الى قوته ، قال موسى كما يحكي القرآن :

« لقد عَلِمتَ ما أنْزَل هؤلاء إلّا ربُّ السموات والأرض بصائر ! وإني لأظنكَ يا فرعون مثبوراً [1] » .

* * *

مؤمن من آل فرعون يخطب – الجدال الكريم

لا يعدم الحق أنصاراً في كل زمان ومكان ، فمن حيثُ يُعضلُ الأمر ، ويعمُّ الفساد ، وتعشى عن الحق العيون ، لا بد من أن يُظهر الله وسط هذا الضلال الشامل ، من يعينُ على الحق ويجهر بالصدق ، فلقد عظمت الحيرة بفرعون وقومه . ماذا يفعلون بنبيهم موسى ؟ وقد جاءهم يُنزلهم من عروش جبروتهم ، وينافحهم ويناقشهم ، ويبطل كيدهم ؟ لم يروا غير أن يقتلوه . ! فانبرى رجل مؤمن من

---

١ – مثبوراً : هالكا .

آل فرعون ، يكتم إيمانه ثم طفق يجادلهم ، جدالاً كله الحجة وكلُّه الإقناع، في أدب من الخطاب، وتلطف في الأسلوب ، قال لهم كما يحكي القرآن :

« أتقتلون رجلا أن يقولَ ربِّي الله ، وقد جاءكم بالبيِّناتِ من ربِّكم ، وإن يك كاذباً فعليه كَذِبُه ، وإن يَكُ صادقـــاً يُصبْكم بعضُ الذي يَعدكم ، إن الله لا يهدي من هو مُسرفٌ كذَّاب . . يا قوم لكم المُلكُ اليومَ ، ظاهرين في الأرضِ فمن ينصرنا من بأسِ اللهإنْ جاءنا ؟ قـــالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُم إلَّا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » .

فيردُّ هذا المؤمن أيضاً ويقول :

« يا قوم اتَّبعون أهدكم سَبيل الرشاد ، يا قوم إنما هذه الحياة الدُّنْيا متاعٌ ، وإن الآخرةَ هي دارُ القَرار ، مَن عَمل سيئة فلا يُجزى إلاَّ مثلَها ، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنةَ يُرزَقون فيها بغَيرِ حساب ، ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار ؟! ، تدعونني لأكفرَ بالله وأشرِكَ به ما ليسَ لي به عِلمٌ وأنا أَدْعُوكم إلى العزيز الغفَّار ، لا جَرَم أنَّ ما تَدْعُونني إليه ليسَ لَهُ دَعوةٌ في الدنيا ولا في الآخرة ، وأنَّ مَرَدَّنا إلى الله ، وان المسرفين هم أصحاب النار » .

بهذا النقاش المهذَّب ، تُبيِّن لنا القصة ، كيف يعلو الحق عن الأساليب الجافة العنيفة، وكيف يسمو عن القِحة والبذاء ! وكيف يتخذ سبيله الى العقول وكيف يلامس مكان الإقناع من الأفهام .

* * *

تمام كلمة الله

لقد دالت دولة فرعون ، وحمِد بنو اسرائيل عواقب الصبر .. بعد أن كان فرعون يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، وبعد أن سخرهم في أذل الأعمال.. فكانت عقبى هذا كلّه أنْ تمت كلمةُ ربك الحسنى على بني اسرائيل ، بما صبروا ودمَّرنا ما كان يصنعُ فرعون وقومُه وما كانوا يعرشون !.

هكذا اصبح كلُّ ظلاَّم في الارض ، وكلُّ جبار بين الناس ، أثراً من الآثار، وخبراً من الأخبار !.

مجد المرأة وكرامتها
في كنف الإسلام

اهتمام المشرع الاسلامي بشأن المرأة

تلقينا رسالة كريمة (من الشام) ، بأن نوجّه الحديث الى شؤون المرأة الإسلامية وما لها من آثار في تكوين الأسرة ، وإعداد الأمة لنصدّ عن المرأة المسلمة الفتنة الطاغية العاتية !. وها نحن بعون الله وتأييده نأخذ سبيلنا في شؤون المرأة المسلمة ، وبيان ما ارتفعت اليه من كرامة ، وما تهيأ لها من كمال ، وما أتيح لها من مجد ، حتى كان لها أبعد الآثار في المجتمع الإسلامي علماً وخلقاً وحزماً ورأياً . هذا الى ما أنجب نساء المسلمين من أبطال سعدت بهم الدنيا . وعزت بهم الفضيلة :

ان اول ما عني به الاسلام في رفع مكانة المرأة والتعريف بمقامها أن قد قضى على المعنى المهين الذي أقره الحمق في المجتمع قبل الاسلام !! ، وهو استحياء الذكور وتقتيل الإناث استهانة بشأن النساء ، واستنكاراً لحقوقهن ، ولقد كان قضاء الإسلام على هذه المأثمة قضاء حاسماً ، نزل به الوحي السماوي في أساليب شتى ، من كل زاجر رادع . واستمعوا اذ يؤنب الوعيد وائد البنات ، فلا يخاطبه ولا يسائله احتقاراً له ولما فعل !! بل يسائل البريئة المظلومة :

« وإذا الموءودة سُئِلت بأيِّ ذنبٍ قُتِلَت ؟ »

انه لبيان رائع في تصوير بشاعة الجريمة واحتقار المجرم ، وتركه مذموماً

مدحوراً ! إنه لبيان لا يتاح لغير القرآن ... ثم يسجل التنزيل الخسران والجهل والغباء على هؤلاء الآباء الأشقياء :

(قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلّوا وما كانوا مهتدين) .

ثم كان فعل سيدنا رسول الله ﷺ وتشريعه العملي يلقيان على الأمة أبلغ الدروس في الرفق بالفتيات وتقريبهن ومحادثتهن وحياطتهن بالحدب والشفق والرحمة والحنان ...

* * *

أمثال من تكريم الرسول صلى الله عليه وسلم للمرأة

ورد في البخاري عن أبي قتادة قال: – خرج علينا النبيّ صلى الله عليه وسلم يحمل (أُمامة) بنت أبي العاص – وامها (زينب) بنت رسول الله ﷺ – وهي صبية ، قال فصلى عليه السلام وهي على عاتقه ، يضعها اذا ركع ، ويعيدها على عاتقه اذا قام ، وكانت أُمامة من أحب الناس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

* * *

ودخل على أهله ﷺ ومعه قلادة ، فقال : لأعطينّها أحبّكن اليّ ! فقلن: يدفعها الى عائشة ! فدعا بنت ابنته أمامة فعقدها لها بيده الشريفة .

وروت أمّ خالد بنت خالد بن سعيد قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي وعليّ قميص أصفر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . سنه . سنه . وهي باللغة الحبشية حسنة ! قالت، فذهبت ألعب بخاتم النبوة ، فانتهرني أبي ، قال رسول الله ﷺ : دعها ؛ ثم قال عليه السلام : أبلي وأخلقي . ثم أبلي وأخلقي . فعمّرت بعد ذلك ما شاء الله أن تعمر ..

بتلك الرقائق المحمدية كان يسن عليه السلام للناس معاملة الفتيات والرفق

بالنساء والإحسان إليهن . وما زالت نظرة المشرع الإسلامي الأعظم الى المرأة نظرة رحيمة عاطفة. ولقد تكون المرأة على غير دين محمد ولقد تكون من أعدائه ثم تَفِدُ عليه أسيرةً ، فلن ترى أعذبَ أسلوباً ولا أرق خطاباً ، ولا أحسن استماعاً ، ولا أجمل رداً مما يخاطبها به محمد عليه السلام .

رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنة حاتم الطائي

أرسل مرة فصيلة على رأسها عليُّ بن أبي طالب. فأعملت في قبيلة طيىء أسراً وقتلاً، فلما سيق الأسرى الى رحاب محمد عليه السلام. وقفت من بينهم (سفّانةُ) بنتُ حاتم الطائي ، وقالت : يا محمد ! هَلَكَ الوالد وغاب الوافدُ ، فإن رأيتَ أن تُخليّ عني ، ولا تشمت بي أحياء العرب ؛ فإن أبي كان سيد قومه ، يفك العاني ، ويقتل الجاني، ويحفظ الجار ويحمي الذمار ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام . ويفشي السلام، ويحمل الكلّ، ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد في حاجة فرد خائباً . أنا بنت حاتم الطائي . فقال محمد عليه السلام : يا جارية ؛ هذه صفات المؤمنين ، فلو كان أبوك مسلماً لترحّمنا عليه ، خلّوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ! ثم قال : ارحموا عزيزَ قوم ذل ، وغنياً افتقر ، وعالماً ضاع بين جهال .ثم كرم قومها من أجلها تحيةً لها ، فأطلقهم من اسارهم . فاستأذنته في الدعاء له ، فأذن لها والتفت عليه السلام الى أصحابه وقال : اسمعوا وعُوا ما تقول الجاريةُ .فقالت : أصاب الله ببرّك مواقعَه . ولا جعَل لك الى لئيم حاجة ، ولا سَلَبَ نعمة عن كريم قوم الا وجعَلك سبباً في ردها عليه !.

* * *

ولقد أبانتْ الحكمة النبوية في تلك القصة عن مقدار ما يحويه قلب المرأة من استعداد كامل لتلقي الدّين لو أنها صادفت المربي الحكيم . فإن (سفّانة) ما كادت ترى صاحب الرسالة ، وتستمع اليه حتى رجعت الى أخيها عديّ بن حاتم – وهو بدومة الجندل – فقالت : يا اخي، إيتِ هذا الرجل قبل أن تَعْلِقَك

حبائله تأتيه مقيداً ، فإنّي قد رأيت هديا ورأياً ، سيغلب أهل الغلبة. ورأيت خصالاً أعجبتني : رأيته يحب الفقير ، ويفك الأسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير ، وما رأيت أجودَ ولا أكرم منه ، وأنه لنبي ، فللسابق فضله . فأصغى (عدي) الى رأي أخته ، وقَدم على رسول الله مسْلماً ومعه أخته مسلمة ايضاً ...

نهي الرسول عن زجر النساء – مزاحه عليه السلام مع مربيته

ولقد كان عليه السلام لا يألو ان يشرع للناس بفعاله كيف يعاملون الفتيات وإن كن خادمات ...

ذهبت جارية بقطيع من الغنم فعدا الذئب على واحدة فأكلها ، فشرع مولى الجارية يضربها ثم انتهى أمره الى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فاشتد به الغضب حتى احمر وجهه ، وهاب أصحابه ان يكلموه . ووقف الرجلُ واجماً فقال عليه السلام: وما عسى الصبيّةُ أنْ تَفعل بالذئب؟ وما عسى الصبية أن تفعل بالذئب؟ وما زال يكررها . ثم قال : إن خَدمكم اخوانكم ، جعل الله لكم الولاية عليهم . فلم يجد الرجل في موقفه غير أن يعتق الجارية .

واستمعوا كيف كان عليه الصلاة والسلام في جلالة شأنه ، وجِدّ أمره ، يتنزل فيمازحُ جارية ورثها عن أبيه اسمها « ام أيمن الحبشية » وكانت عسراءَ اللسان وكان عليه السلام يشرّفُها فيدعوها (بيا أمّ) . كانت اذا دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول : سلام الاّ إليكم – تريد ، سلامُ اللهِ عليكُم . فرخّص لها عليه السلام ان تقول « السلام » فقط ، ومن سمرها مع رسول الله عليه السلام ، انها قالت له وهو خارج في جيشه الى (حنين) : سبّت الله أقدامكم (بالسين) . تريد (ثبّت الله) والسبت – القطع. فقال لها عليه السلام: اسكتي يا أمّ أيمن ، فإنك عسراء اللسان .

* * *

المرأة الصالحة تنجب الافذاذ

وهكذا حوّل المشرع الاسلامي رأي المجتمع في المرأة فانقلبت أنفته منها ،

وامتهانه لها ، تحناناً عليها وبراً بها ، وقدراً لشأنها ، وتقويماً لأثرها ، وصار عظماء رجاله ينقبون عن الكريمة تنجب البطل – ينقبون عنها حيثما تكون ..

روى الميداني ، أن عمر رضي الله عنه مرّ بسوق الليل في – في المدينة – فرأى امرأة معها لبن تبيعه ومعها بنتٌ شابّة . فهمت العجوز ان تمزج لبنها (تخلطه بالماء) فجعلت الشابة تقول . يا أمُّ ، لا تخلطيه (لا تغشيه) . فوقف عمر فقال للأم : مَنْ هذه منك ؟ قالت : ابنتي . فزوجها من ابنه (عاصم) . اتعلمون كيف صارت هذه الفتاة ؟ وكيف صدقت فراسة عمر فيها ؟ لقد صارت جدّة لأعدل بني أمية عمر بن عبد العزيز . فهي جدته لأمه ، وصدقت فراسة عمر في ان انجبت هذه النجيبة نجيباً ! لقد كانت قوية الخلق فأورثت ابن عبد العزيز تلك النقيبة ...

وما برحت مجالي الرحمة بالبنت ، والبر بالمرأة تتجلى من حيث كان صلى الله عليه وسلم ، حتى لقد وسعت رحمته امته نساءَها ورجالها وصدق الله العظيم :

« لقدْ جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيز عليه ما عنتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم » .

حقوق المرأة

لقد بدأت تتقرر حقوق الانسانة . كما تقررت حقوق الانسان ؛ وأخذت مكانة المرأة تكبر في نفس المجتمع ، وصارت هي تعرف قدرَ نفسها كما حددها القرآن « ولهُنّ مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » فكن يدركن وظيفتهن في تكوين البيوت ، وتدعيم المجتمعات . وكنّ يعرفن ان تلك الدرجة التي ارتفع اليها الرجل هي درجة حماية الأوطان ، وحياطة الأمة ، والضرب في اكناف الأرض ، وتزويد الاسرة وامداد الدولة .

واليوم – وقد ارتقى تفكير المرأة المسلمة ، واتسع افقها حتى صارت تقارن بين وظيفتها ووظيفة الرجل ، فنرجو ان تعرف حدودها ، وان تكون في أخذها بنصيبها من إعداد البيت موفورة الاجر ، محمودة الجزاء ، مرضيا عنها . من الله ورسوله مشاركة فيما وعد به عباده المجاهدين .

واستمعوا الى (اسماء بنت يزيد) الانصارية التي لقبت بخطيبة نساء العرب ورسولهن الى محمد صلى الله عليه وسلم .

وقفت اسماء عند رسول الله ﷺ وهو بين اصحابه فقالت : بأبي وأمي انت يا رسول الله . أنا وافدة النساء اليك، ان الله عز وجل بعثك الى الرجال والنساء كافة فآمنا بك وبالهك، انا معشرَ النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم، وحاملات اولادكم، وانكم معشرَ الرجال فُضلتم علينا بالجمع والجماعات وشهود الجنائز والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وان احدكم اذا خرج حاجاً او متعمراً او مجاهداً حفظنا لكم اموالكم، وغزلنا اثوابكم، وربّينا لكم اولادكم ، أفنشارككم في هذا الأجر والخير ؟ فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم الى أصحابه بوجهه كله ، ثم قال : هلْ سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها ؟ فقالوا : يا رسول الله ما ظننا أن امرأةً تهتدي الى مثل هذا . فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم اليها فقال : أفهمي أيتها المرأةُ وأعلمي من خلفكِ من النساء ، أنّ حُسْنَ تبعّل [1] المرأة لزوجها ، يعدل ذلك كلّه . فانصرفت المرأةُ وهي تتهلل ، حتى وصلت الى نساء قومها بين العرب وعرضت عليهن ما قاله لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففرحن جميعهن .

* * *

بناء المرأة للابطال

على هذا تقررت حقوق المرأة في المجتمع الاسلامي، وأخذ المشرع يبني الأمهات على أساس الدين والفضيلة فمَجُدتْ المرأةُ وكرُمت ، فخرّجت للأمة كل بطل ، وكلّ عظيم ، ولله أمير الشعر الحكيم (شوقي) اذ يقول :

قم ابنِ الأمهات على أساس ولا تبنِ الحصونَ ولا القلاعا
فهن يَلِدْن للقَصَب المذاكي [2] وهن يَلدنَ للغاب السّباعا

---

١ – تبعل المرأه لزوجها : قيامها بواجب الزوجية .
٢ – الخيل العتاق .

فهرس

	صفحة
كتب قيمة : في التعريف بهذه المحاضرات والدراسات	٥
أثر العقائد في إصلاح المجتمع والافراد	١٥
أين الرجل المؤمن وكيف تعرفه	٢٣
عيد المولد المحمدي السعيد	٣١
محمد رسول الله في شبابه وبعثته	٤١
المكافحة في سبيل الدعوة المحمدية	٥٢
تألق الدعوة الإسلامية	٦١
عيد الهجرة المحمدية	٧٩
النشاط الإسلامي ينهض بالمجتمع	٨٩
الإسراء والمعراج	١٠٤
زواج المسلمين وزواج نبيهم ﷺ	١١٤
عود إلى زواج النبي ﷺ	١٢٤
سيدنا ابراهيم الخليل	١٣٣
موسى كليم الله	١٤٤
مجد المرأة وكرامتها في كنف الإسلام	١٥٣

انتهى بعون الله الجزء الاول من
هذه الدراسات ويليه الجزء الثاني

٤٢٢ – ٤ – ٦٢

حول المؤلف والكتاب

ليس مؤلف هذه السلسلات والحلقات بغريب على القراء، وليس صوته ببعيد على الأسماع فطالما أرسل من منبر الإذاعة المصرية روائع الأبحاث والأحاديث الدينية والأدبية، وأوضح الحلول لمشكلات المجتمع على أساس سليم من الدين والعقل.

ولقد كان صوته يدوي كل صباح ومساء، ونبراته في الأداء تأخذ بمجامع القلوب وتهز الأحاسيس، وتحدث تجاوبًا بعيد المدى في أنحاء العالم الإسلامي، حتى لقد أكبر صنيع المؤلف وإنتاجه المثمر، أشياخ العلماء، وكبار المفكرين - لهذا - رأينا أن نخرج هذا الانتاج من التراث الإسلامي، في سلسلات وحلقات تيسيرًا وحرصًا على تعميم النفع، وعرضًا سليمًا للثقافة الإسلامية، التي تهفو إليها نفوس المسلمين.

الثمن: ٢٠٠ ق.ل.

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0036759104